

جورج برنارد شو

المسيح
ليس مسيحاً

المسيح
ليس مسيحًا
(مقدمة لسنجة: اسد وكلس والامس، م)

جميع الحقوق محفوظة
لدار الطبيعة - بيروت
ص.ب : ١١١٨١٣
تلفون : ٢٥٧.١٧٨
٢٠١٤٧٠

الطبعة الاولى
آذار (مارس) ١٩٧٣
الطبعة الثانية
آذار (مارس) ١٩٧٩

جورج برنارد شو

المسيح ليس مسيحياً

(مقدمة لسُحَيْبَة «اندروكس والاس»)

ترجمة: جورج فتاح

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الفهرس

٥	الفصل الاول : مقدمة فى افراض المسيحية
٣٧	الفصل الثاني : متى
٥٨	الفصل الثالث : مرقس
٦١	الفصل الرابع : لوقا
٦٩	الفصل الخامس : يوحنا
٧٩	الفصل السادس : قبول الاناجيل
٩٤	الفصل السابع : السيوعية الجديدة
١١٥	الفصل الثامن : يسوع فى الزواج والاسرة
١٢٥	الفصل التاسع : ما بعد الصلب
١٥٠	الفصل العاشر : النقد الاعلى

الفصل الأول

مقدمة في اغراض المسيحية

لماذا لا تعرض المسيحية الى التحكيم العقلي ؟

بعد ان مر القان من السنين على التمسك العنيد بالصيحة القديمة : « ليس هذا الرجل بل برأبا » (١) قد يخيل لنا من العبث

١ - برأبا Barabbas هو احد الثائرين اليهود على الحكم الروماني نجم في عهد المسيح وكان يهاجم الخافر والدوريات العسكرية الرومانية وينهب ويقطع الطرق ، قبض عليه بعد كثير من العناء وحكم بالموت الا انه لم ينفذ فيه وبقي سجيناً حتى اذا التقى القبض على المسيح وجيء به امام القتراوله (الحاكم الروماني) بيلاطس ذهب اليهود اليه لكي يثبت حكم الموت الذي اصدروه على يسوع وكانت السلطة الرومانية لا تسمح بقتل المجرم الا بعد ان تصادق على

الباطل ان نخوض في الموضوع . مع هذا ، فالامر يبدو وكأن
 الفشل والاختفاق حليف برآيا وان ظلت يده اليمنى قوية باطشة،
 وبقيت امبراطوريته وانتصاراته وملايينه ومبادئه الخلقية وبيعته
 ودساتيره السياسية قائمة . هذا الرجل لم يمن بالاختفاق فسي
 الواقع ، غير ان العقول لم تبلغ بعد النضج الكافسي لتجريب
 طريقته ، على انه كسب نصرا عجيبا واحدا ؛ وهو سرقة اسم
 «ذاك الرجل» (١) واتخاذ صليبه علما وشعارا . ان في هذا
 نوعا من التكريم بل نوعا من ولاء يشبه ولاء قاطع الطريق الذي
 يخرق كل قانون تم يدعي بانه مواطن مخلص من رعايا ذلك الملك
 الذي قام بسن تلك القوانين المخروقة . لقد كان يلازمنا دوما ،
 شعور غريب بأننا وان صليبا المسيح على عود فانه استطاع بشكل
 ما ، ان يقبض على النهاية الصحيحة منه (٢) وانه لما كان افضل

ذلك . وكان من التقليد ان الحاكم يطلق لهم في كل عيد سجيناً ، اي واحد
 ارادوا فسألهم بيلاطس «من تريدون ان اطلق لكم ؟ أبرابا ام يسوع الذي يقال
 له المسيح ؟» لكن الاحبار والشيوخ اقموا الجمع بأن يطلقوا برابا ويهلكوا
 يسوع . فقال لهم الحاكم : «أيهما تريدون ان اطلق لكم ؟» فقالوا «برابا» فقال
 لهم بيلاطس «لماذا اعمل يسوع الذي يقال له المسيح ؟» فاجابوا حميمين
 «ليصلب» . وهذا ما يعصده هنا (شو) بقوله : «ليس هذا الرجل تطلق سبيل
 اطلق برابا» . فبرابا بالنظر الى (شو) هو رمز لكل من يعتبره قد تجاهل او اساء
 تفسير تعاليم يسوع ، وبرنارد شو هنا يعكس التفضيل العصري للماديات على
 الروحيات . (وردت حادثة برابا في الاناجيل الاربعة ، متى : ف ٢٦ ، مرقس :
 ف ١٥ ، لوقا : ف ٢٣ ، يوحنا : ف ١٨) (جميع حواشي الكتاب للمعركة) .

١ - «ذاك الرجل» يقصد به يسوع المسيح .

٢ - The right end of the stick تعبير انكليزي يحا وقد آتينا المفيد
 بحرفيته لكيلا نخلّ ببلافته . ومعناه : ان شيئاً مميّناً قد فُهم فهما صحيحاً . او
 ان عملاً من الاممال قد انجز بخير ما يمكن .

منا فعلينا ان نحاول تطبيق مبادئه . وفي هذا المجال جرت محاولة شاذة او محاولتان اقدم عليهما اناس تنقصهم الكفاءة ، مثل قيام شيعة (مملكة الله) في مونستر (١) ، تلك المحاولة التي انتهت بعملية صلب أشد وحشية من تلك التي وقعت في قلغاري (٢) . حتى ان الاسقف الذي تقمّص في تلك العملية دور (حنان) ، عاد الى بيته ومات من فرط الرعب . على ان هناك رجسالا ذوي مسؤولية وحول أمسكوا ، ولم يقوموا بمحاولات كهذه المحاولة ! ان هذا العالم القادر المتلىء بالكفايات والكثير المال بقسي منذ عملية (الصلب) حتى يومنا هذا (برآيية) لامسيحيا . ولم توضع عقيدة المسيح الخاصة طوال هذا الزمن موضع تطبيق سياسي او اجتماعي شاملين . اني لست بأكثر مسيحية من بيلاطس او مما كنت انت ايها القارئ الكريم ، ومع هذا فأنا افضل يسوع على حنان وقيافا (٣) تفضيلا عظيما لا يمكن قياسه . وانا على استعداد للاقرار والتسليم - بعد ان تأملت الدنيا وطبائع البشر حوالي ستين عاما - بألا طريق هناك للخلاص من الشقاء البشري .

١ - Munster هي مدينة في (بروسيا) . كان المذبحر جون قد خرج اليها من مدينة ليدن Leyden الهولندية في العام ١٥٢٣ بمهمة تبشير ووعظ ديني ، فانضم اليه اشباع كثيرون واصبح رعيما وأبا روحيا لغلاة اطلق عليهم اسم «الفديسين» ، ونصب جون هذا ملكا على مونستر فحكمها عاما كاملا . الا ان اسقف المدينة ، قام بثورة مضادة عليه انتهت بانزاله عن عرشه وتعليقه وقتله عام ١٥٢٦ . هذا (الزنديق) ولد في ليدن ١٥٠٩ وامتنع الخياطة ثم اصبح صاحب خمارة قبل ان يباشر حجة الديني الى مونستر .

٢ - الموضع الذي نصب عليه صليب يسوع في الجلجلة .

٣ - (حنان) (اسم عبري معناه نعمة الله او هبة الله) رئيس الاحبار اي الكهنة (ت: ما بين ٦ و ١٥ للميلاد) عينه كيريثيوس حاكم سورية الروماني رئيسا وخلفه الحاكم الموكل على اليهودية (غاليريوس غراتوس) كان اول من اذان المسيح بعد

الا الطريق التي كانت ستجدها ارادة المسيح على الارجح لو اذ شاء الاضطلاع بمهمة السياسي العصري الواقعي . ارجو منك ايه القارئ الا يفرغ صبرك مني عند هذه النقطة الاولى: فتقبل كتابي وتقبل به جانباً ؛ اؤكد لك اني مفكر علمي المنجى عصري النهج مرتاب بقدر ما تشتهي وتحب . ولك مني ضمان ايضا بأن لم الماما كافيا بالاقتصاد ، والسياسة ، المام يزيد كثيرا عما كان ليسوع منهما . ولتطمئن ايضا بأن في امكاني عمل اشياء / يستطيعها هو . اني بحسب كل المقاييس (البرايئة) اعلى مقام واثبت خلقا واكثر غنى بالشعور العملي منه . اني لا اكن عطفـ للمتشردين ولا لمن يتحدث لاجلهم ايضا . ولو كنت بيلاطس لوجب عليّ ان ادرك بأوضح مما ادرك هو ، ضرورة تخفيف الهجمات على النظام الاجتماعي الحالي مهما بلغ ذلك النظام من النسخ . تلك الهجمات التي يشنها اناس لا علم لهم بأصول الحكم ولا قدرة لهم على بناء ماكنة سياسية تطبق آراءهم . اناس يعملون بوحى الوهم الخطر القائل بأن نهاية العالم موشكة . اني لا ادافع عن امثال سافونارولا (١) ولا جسون الليندي (٢) فهؤلاء تقبوا

القبض عليه . نزل من منصبه لقيافا صهرا ولكنه بقي محتفظا بسلطة الحبر حتى بعد نزوله وفنا للتقليد . وكان (قيامه) عظيم الاحبار يوم حكم على (يسوع) بالموت ونقل الى ٢٧ - ٣٦ م .

١ - Fra Girolamo Savonarola (١٤٥٢ - ١٤٩٨) رئيس دير القدس مرقس الدومنيكاني في (فلورنسا - ايطاليا) . كان واعظا يلقي شديدا الترسد طالب بالاصلاح الديني والسياسي وقاد حركة ديمقراطية ضد ادواق فلورنسا وطردهم من الحكم وألف مجلسا تشريعيّا منتخبا وتم يظل به الزمن فقد قبض عليه وحوكم وأعدم بتهمة الزندقة وأحرقت جثته .

٢ - تقدم التعريف به ، انظر هامش : ١ ، صفحة ٧ .

السفينة (١) قبل ان يتعلموا بناء ومث فبات من الضروري قد فهم الى البحر لانقاذ البحارة . اقول هذا لاضع نفسي في موضع صحيح بين مجتمع محترم من البشر . ولكن ينبغي لي البقاء مصرا على قولي بأنه اذا كان يوسع يسوع حل المشاكل العملية بدستور اشتراكي، وشريعة مسنونة مقننة ، تهدف الى معالجة اجتماعية خالصة من روح الانتقام ومن العقاب ، وبالاعتراف الكامل من الانسانية جمعاء بالمسؤولية الالهية فان مبادئه المتأخرة تلك ستكون هي الاقتصاد المتسجم مع العقل السليم .

واقول «ممازاة» لان انسانية يسوع الشعبية وخضوعه لطرفي الزمان والمكان واعني قبوله طراز الحياه السورية (٢) السائسة حينذاك) اغرقت عقيدته في كثر مد هو غير حقيقي ، ومما هو خيالي حتى بات لا تميزه بأي شكل من الاشكال عن اي من اولئك السريان ذوي اللحي ! على ان امتال هذه العوائد ذات الصفات

١ - Seutting The Ship تفسير الكليري حسيم معناه الحرشي اعراف السفينه باحدات ثغور في قاعها او حوابها» ويعمد الى ذلك في الحرب عادة لكيلا تمنع السفينه في يد العدو وقد استخدم (شو) هذه العبارة قائدا بها ان سامونادولا وحوو اللبدني حاولا القضاء على النظام السياسي الراعي دون ان يتعدما سديل عنهما .

٢ - كانت اللغة السريانية العديمة (الاراميه الحديثه) هي لغة التخاطب لسكان ما يؤلف اليوم العراق وسورية ولبنان وفلسطين - في ذلك الحين ولم يكن اليهود يتكلمون العرانيه بل السريانيه ايضا (فالعرية لغة التوراة ولا تعرفها العامة) كما ان العادات السريانية (او السورية بكلمه أدق) كانت لها اسيادة كذلك . والى هذا يشير شو ، أجداً كانت اشارته ام هولا .

العامة لا تستبطن «مسيحية مخصصة» أكثر من أرخاء لحية (١)،
والاشتغال في دكان نجارة ، أو من الاعتقاد بأن الأرض مسطحة
وإن النجوم قد تسقط عليها كالوابل الهن ! إن المسيحية تجذب
الآن اهتمام الساسة العمليين ، بسبب احتوائها تلك العقائد التي
ميزت المسيح عن اليهود وعن «البرابيين» عموماً ونحن من جعلتهم!

لماذا يسوع بالنات وليس غيره ؟

لست أعني على أية حال بأن تلكم العقائد كانت غريبة عن
المسيح . العقيدة الغريبة عن إنسان قد تكون خيالا ليس غير إلا
إذا كان استيعابها قد اعتمد على تطور وكفاية إنسانيتين نادرتين
بحيث لم يحزها إلا إنسان واحد موهوب بصورة استثنائية فائقة
للعادة . إلا أنها حتى في هذه الحالة قد تكون عقيمة باطلة لتعذر
انتشارها . إن المسيحية هي خطوة في التطور الأخلاقي مسنعة
عن أي واعظ . إن لم يوجد يسوع (ومسألة وجوده بشكل آخر
يختلف عن وجود هاملت (٢) شكسبير وإن كانت مسألة كثر فيها
الإخذ والرد) فإن تولستوي كان سيبقى يعلم ويفكر بطريقته ،
ويختلف مع المذهب اليوناني أيضاً (٣) مثلما فعل سواء سواء .

-
- ١ - معظم الرسامين يرسمون وجه يسوع بلحية ، كما أن يوسف روج أمه
كان نجاراً في الناصرة كما جاء في الانجيل .
 - ٢ - يشك بعض الكتاب في أن الأمير هاملت بطل مسرحية شكسبير الشهيرة
لا وجود له تاريخي وأنه على الأرجح اختراع .
 - ٣ - يشير شو هنا إلى الخلاف المعروف بين الروائي الروسي العظيم
والكنيسة الأرثوذكسية .

لقد قام بعض الناس بممارسة عقائد هؤلاء الناس (١) بمدى واسع مع ان قوانين كل البلاد اعتبرتھا في الواقع عقيدة مجرمة . لقد كان عدد كبير من دعائھا ملحدین مجاہدين في الحادھم . ولكن لسبب من الاسباب اختار خيال الانسان الابيض شخص (يسوع الناصري) ليكون (مسيحا) (٢) وعزا اليه كل العقائد المسيحية . ولما كانت العقيدة هي المهمة ، ولما كان اي رمز من الرموز لا غبار عليه كأي رمز آخر شريطة ان يكون له نفس المعنى في مفهوم الجميع ، فلن تراني هنا اثر في هذه الساعة موضوع مدى صحة الاناجيل وكم أقحم فيها من الادبيات اليونانية والصينية . ان ما دون من اقوال معينة لـ (يسوع) لا يدحضها او يبطلها اي دليل على ان كونفوشيوس (٣) قالها قبله . وان اولئك الذين يزعمون بشكل جازم لا مرد له بأن اباہ الله ، لا يمكنك انت ان تدحض زعمهم وتسكتهم بقولك لهم ان هذا الزعم نفسه قد اسند للاسكندر ولاوغسطس . وانا الآن لا اهتم بصحة الاناجيل (٤) (وبعضها مدونات

١ - اعني اولئك الذين خرجوا على التعاليم المسيحية من امثال تولستوي وكوتوا لانفسهم عقائد خاصة ومفاهيم يشرعون بها .

٢ - من «مسح» اي دهن بالزيت . كان الاقدمون يمسحون الملوك عند تسلمهم العرش . واليهود يمسحون عظيم الاحبار عند تنصيبه . واطلقوا هذا الاسم على رسول الله الذي كانوا ينتظرونه لخلاصهم (يوحنا ف ٤-٣٥) بيد انهم ترجموا ان المسيح سيكون متفلا سياسيا ديونيا اكثر منه رسولا يعلن مفكوت الله ويكشف للناس اسرارہ ويدعوهم الى التوبة والبر ويسلهم من الشيطان بالامه وموته .

٣ - فيلسوف صيني (حوالي ٥٥٠ - ٤٧٨ ق م) . ومجمل فلسفته هي «لا تعمل للآخرين ما لا ترغب في ان يعملوه لك» وقد اوصى يسوع بهذا أيضا .

٤ - الانجيل من كلمة (ايوانجليون) اليونانية ، وهي اسم جنس معناه البشري او البشارة ، وتدل كلمة انجيل في المرف المسيحي على البشارة التي حملها يسوع الى الناس . وسميت الكتب الاربعة التي دون فيها متى ومرقس ولوقا ويوحنا «بشارة يسوع» بالاناجيل الاربعة .

يحتوي حقائق لاني لا اعمل عمل محقق عدلي . بل ادبر اضواءنا
العصرية لالمنها على افكار في تلك الاناجيل استطاعت ان تلمص
من البقية لانها مخالفة صراحة للتطبيق العام ، والادراك البديهي ،
والمفهوم العام . مع انها قد انتجت - عندما لاكتها الريبة العنيدة
وعدم الرغبة في الخضوع للسلطة والعادة ، انطبعا لا يفاوم بأن
المسيح وان رفضه السلف بوصفه رجل أحلام غير عملي ، ونقد
فيه حكم الموت معاصروه بوصفه فوضويا خطرا ومجدفاً مجنوناً ،
كان في الواقع اعظم من قضائه .

اكان يسوع جباناً ؟

اني لعلني يقين تام بأن الانطباع عن هذا التفوق لا يتخلف في
كل انسان . حتى في أولئك الذين يقرون بقابلية مفرطة له . واذا
نحن نحينا جانباً تلك الكتلة الهائلة من المفاهيم الخاصة بعبادة
المسيح التي فرضت بالتعليم المستمر الطويل وليس فيها اية ميزة
حقيقية ، فانك لتجد بين الناس المتحررين حقاً في التفكير
بالموضوع كما يشتهون - مقداراً كبيراً ممن امتلأ قلبه بالكسرة
الصميم ليسوع والسخرية بفشله في انقاذ نفسه والغلب على
اعدائه بالشجاعة الفردية ، وسعة الحيلة كما فعل محمد (ص) .
لقد سمعت أشخاصاً في انكلترا إربوا تربية مسخرة ، يعبرون
من هذا الشعور بلجاجة تفوق كثيراً ما يعبر عنه المسلمون الذين
كانوا مثل نبيهم - في منتهى اللطف مع يسوع عندما منحوه جانباً
واسعاً من اجلالهم واحترامهم ، يساوي على أقل تقدير الاحترام
الذي نكنه ليوحنا المعمدان . الا ان هذا الازدراء الانكليزي
البولدوكي (١) نشأ عن سوء فهم تام لاسباب يسوع الخاصة التي

١ - Bulldog : فصيلة من الكلاب مشهورة في انكلترا ، ويرمز هذا
النوع الى العناد المتناهي في الخلق الانكليزي .

دعته الى الخضوع من تلقاء نفسه لآلام التعذيب ، واحتماله
سكرات الموت . ان العلماني رجل العصر (١) كثيرا ما تراه مصرا
اصرارا شديدا على ان يرى يسوع كما يرى اي بشر آخر مثله
وليس اكثر ، حتى لتراه يقع دون ان يدري في وهم مؤداه ان
المسيح نفسه يشاطره وجهة نظره هذه ! لكن اسفار العهد الجديد
(وهي المرجع الديني الاساسي لاي اعتقاد بوجود يسوع حقيقي)
توضح لنا بان يسوع آمن في ساعة موته بأنه هو المسيح اي
الشخصية الالهية . وما دام الامر كذلك فمن السخف ان ننتقد
الآن سلوكه امام بيلاطس ، كأنما هو مثل العقيد روزفلت او
الاميرال فون ترويتز او (محمد بن عبد الله) نفسه . وسواء في
ذلك اقبلت انت ايمانه بألوهيته بالنمام والكمال ، مثلما فعل
القديس بطرس او رفضته بوصفه وهما من الاوهام ادى يسوع
الى ان يتقبل العذاب طائعا ، ويضحى بحياته دون ان يبسدي
مقاومة لاعنقاده بأنه سيقوم من بين الموتى وينبعث ممجدا على
الغور ، فعليك كذلك ان تقر بأنه لم يتصرف كما ينصرف الجبان او
الشاة ، وانما اظهر جلدا بشريا عظيما في احتماله تجربة قاسية
كان بمقدوره ان يدفعها عن نفسه بعين النجاح الذي حالفه عندما
طرد الباعة والمرايين من الهيكل . « يسوع اللطيف الحليم
الوديع ! » (٢) انما هو اختراع مصري ضعيف ، بكاء يفطر دموعا ،

١ - استعملنا كلمة العلماني لتعبر Secularist وهو الشخص الذي
يرفض معتقدات الدين التي تعوق الطبيعة ولا يقبل بعقيدة لا يمكن اخضاعها
للمعقل .

٢ - «م دخل يسوع الهيكل وطرد جميع الذين يبيعون ويشتررون في الهيكل»
وقلب مناضد الصيارفة ومقاعد باعة الحمام وهو يقول له «مكتوب بيتي بيت
الصلاة وانتم تجعلونه مغارة لصوم» - (مشرا الى كلام ارميا ٧-١١) وكان

لا سند يدعمه من الاناجيل . اما متى الانجيلي (١) فتراه يتردد في الصاق مثل هذه الصفات بيهوذا المكابي (٢) ، كما الصقها يسوع . حتى لوقا (٣) الذي يقدم لنا يسوعاً مؤدباً كريماً ، فإنه لا يلصق به صفة الخنوع والذلة . ان تصويره بشكل راعي بيعة هزلي الطابع اكثر اناة وصبرا من الدخول في مشاحنة مع شرطي ، وتقديمه كموضع سخر الجميع وفكاهاتهم هذه الصورة قد تكون مفيدة في غرف الاطفال حيث تستخدم لتهدئة شغب الصغار ، اما ان تكون مثل هذه الشخصية الخائعة محور اهتمام العالم ، فهو لعجري اسخف جدا من ان يكون موضع نقاش . قد يتكلم البالغون من الرجال والنساء يعطف عن انسان نكرة ضعيف الحيلة ينطق بمشاعر تستهوي النفس لا خير فيها عندما يستنجد به احدهم . على ان الناس لا يتبعونه ، ولا يفعلون ما يأمرهم به لانهم لا يريدون

السيارة يريدون التقود لليهود الذين يريدون تقريب الديالغ لله . ويعتبر هذا العمل من اعمال المتف القليلة التي اتاها المسيح . ففي رواية يوحنا الانجيلي انه كان يسعمل سوطا مجدولا لضربهم . واما عبارة «يسوع اللطيف» .
Gentle Jesus, meek and mild فهي عنوان ترجمة الكليزية شهيرة .
١ - كاتب احد الاناجيل الاربعه المعروف باسمه . كتب انجيله بالآرامية في حدود العام (٤٤) م لسيحيي فلسطين وبعد النص الآرامي وبقيت ترجمته اليونانية .

٢ - قائد يهودي ، ترمم اليهود في قورثم على السوريين . توفي في العام ١٦٠ ق.م .

٣ - لقي بولس الرسول في طراوس (٤٤) م فصار رفيقا له ومعاوناً ولصق به حتى استشهد بولس في روما ، كان طبيبا ولا نعرف ابن عاش بعدها الا انه دون انجيله في حدود عام ٦٥ او ٦٧ ودون اعمال الرسل وهو جزء من العهد الجديد ما بين ٦٨ و ٨٥ م .

مشاطرته فشله وعاره .

آكان يسوع شهيدا ؟

من المهم هنا أن نستبعد عن رأسنا الفكرة التي اتخذ بعضها التصريح بها ديدنا : وهي أن يسوع مات بسبب آرائه السياسية والاجتماعية . هناك عدد كبير من الذين استشهدوا في سبيل آراء من هذا النوع . الا أن يسوع لم يكن احدهم . اذ لم يسر جدوى في الشهادة اكثر مما رأى غاليلو فيها ، كما تبين لنا مره من اقواله (١) . وما اهدمه اليهود الحياة الا بسبب تجديفه اذ ادعى انه الله . وبيلاطس الذي كانت مسألة هذا الادعاء بالنسبة له مجرد هراء يمت الى الشعبذات والخزعبلات بصلة مباشرة ، تركهم ينفذون فيه حكم الموت كأرخص وسيلة للابقاء على هدوتهم مسندا اليه تهمة رسمية وهي ارتكابه جريمة الخيانة العظمى بحق روما حين زعم انه ملك اليهود (٢) . ان قضائه لم يتهموه ظلما او

١ - هناك الكثير في الاناجيل مما يدل على ان المسيح لم يكن يحيد الاستسلام للموت في سبيل العقيدة (الشهادة) منها مضمون وصايا لتلاميذه في (متى ٢٣: ١) وكهروبه واحتفاله عند مقتل يوحنا المعمدان .

٢ - في عرف اليهود أن (مسيحهم) الاتي سيكون ملكا عليهم . ولذلك كسان عظيم الاحبار قبالا يريد ان يثبت ادعاء يسوع بأنه المسيح . فلم ينكر (حسبا قول متى) ولذلك لم يسه ان ينكر عندما جرى به الى بيلاطس الذي نظر الى التهمة من وجهة النظر الرومانية لان الادعاء بالملك على اليهود يتضمن مناواة سلطان روما عليهم والعمل على تقويضه وهي تهمة تستحق الموت من وجهة النظر الرومانية .

زيقا ولم ينكروا عليه فرص الدفاع عن نفسه بصورة كاملة .
فالأجراءات كانت قانونية وصحيحة الى آخر حد . وببلاطس الذي
كان ينظر في قضيه «استثنافا» وقف الى صفه وعطف عليه
واحترف قضاته الأول ، وكان على ما يبدو شديد الرغبة في ان
يصون حياته ، الا ان يسوع اقر بالتهمة بدل انكارها وهو يعلم
يقينا ما هو مقدم عليه . فقد اعلن عن ذلك قبل اقام بالعمل نفسه
فانفصل عنه بعض تلاميذه ورجم في الشوارع بسبب ذلك . انه
لم يكن يكذب بل كان يؤمن حريا بما يقول وكان من الطبيعي جدا
ان يتحول عظيم الكهنة اقواله : هوذا عظيم اخبار دين يواجهه
واعظا جماهيريا من وعاظ الشوارع الهراطقة ناطقا بما يعتبره هو
كفرا تسنيها وقحا . اما الحقيقة وهو ان هذا الكفر الوقح كان
بالنسبة ليسوع تعريرا بسيطا لواقع ، وان هذا (الواقع) باب منذ
ذلك الحين فهو قبلة انظار كل شعوب الغرب على علاقته ، فلا
تضمن قط طعنا في صحة الإجراءات المستخدمة ضد يسوع ولا
نعطينا الحق في اعتبار حثان وقيافا أسوأ من رئيس اساقفيسة
كانتربري او عميد كلية ايتون . ولو ان الاتهام الذي وجه الى
يسوع وجه اليه الآن في محكمة عاديه ، فسنفوم هذه المحكمة
بعرضه على طبيبين لاجراء الفحص عليه ، وسيجد هذان الطبيبان
ان وهما استولى على عقله ، وسفرر المحكمة بناء على ذلك بان
المتهم لا يملك القدرة على الدفاع عن نفسه . هذا هو الفرق برمه !
على اني ارجو منك ان تلاحظ هذا ، وهو انه عندما يتهم احدهم
امام احدي محاكمنا بأنه متصر على الزعم بأنه ضابط عائد مسن
جبهة القنال لنفلد وسام (صليب فكتوريا) (١) من يد الملك ! في
حين انه عامل ميكانيكي (وتلك قضية وقعت فعلا قبل فترة مسن

١ - هو اربع وسام حربي في انكلترا .

الزمن) ، فلن يفكر احد في معاملته معاملة شخص مصاب بوهم ، بل سيعاقب بجريمة انتحاله صفة كاذبة ، لان ادعائه قابسـل التصديق فهو اذن ادماء افضل من سابقه . والامر كذلك بالضبط حين ادعى المسيح بالالوهية . ولما كان عظيم الكهنة ينتظر مجيء المسيح فعلا ، فقد اضطر الى اعتبار هذا الادعاء من يسوع جدّيا ومقصودا ، فهو والحالة هذه قد يضلّل الناس ويسلمهم الى متاهة خطيرة جدا ولذلك عامل يسوع معاملة الدعي الكاذب والكافسر المجدف ، في حين كان يجب ان يعامله معاملة المخبول المهورس .

الاناجيل ، من غير تحامل

كل هذا سيفقدو لنا واضحا عند قراءة الاناجيل من دون تحامل او اغراض . عندما كنت صغيرا ما قراتها الا وانتاب تفكري اضطراب عجيب . وبلغ بي الاضطراب حدا من الارتباك المطلق ، بحيث تطلب امر قراءتها مني مجددا حالة روحية خاصة ! كان يسوع طفلا وهو في الوقت نفسه اكبر سنا من الخليقة . كان قابلا للرجم والاضطهاد ، والجلد والقتل وكان في الوقت ذاته إلها خالدا غير محدود السلطان قادرا على احياء الموتى واستدعاء «قيالق» من الملائكة وملايين لموته . وكل من ينتابه الشك في هذه الامور بأي وجه من الوجوه ، يمدّ آتما : وهكذا يؤول بك الامر الى انك لا تمود تقلب وجوه الرأي في شأنه ، ولا تقرا عنه الا عندما تضطر اضطرابا . لما سمعت قصص الانجيل تتلى في الكنيسة ، ولما تلقيتها على ايدي الشعراء والرسامين ، خرجت من محتواها بانطباع قد يندهش له الصيني الذي كان قد قرا

المجموعة كلها دون تحيز أو إغراض (١) ! والمترابون الذين يغلب عليهم الحذر بصورة خاصة ، هم أيضا يجلسون الكتاب المقدس على مقعد الاتهام ، ويقرأون الاناجيل بقصد استخلاص التناقض والخلاف بين روايات الاناجيل الاربعة ليثبتوا ان كتابها لا يقلون عن صحفيي يوم امس تعرضا للخطأ . هذا كله طرا عليه تفسير عظيم خلال جيلين من الزمن . واليوم قلّما نجد من يقرأ التوراة ، حتى ان لغة النسخة المجازة صارت تهجر بسرعة ، حتى في الولايات المتحدة حيث ما زالت الترجمة العتيقة التقليدية « لسيفر الاسفار ! وكتاب الكتب ! » متسككة متشبثة بقوة تفوق تشبثها بأي مكان آخر باستثناء « اولستر » على ارجح تقدير ! ومهما بين من امر فان الترجمات الانكليزية الحديثة قد عملت كيفما اتفق مستهدفة بذلك انقاذ وضوح هذا الكتاب المقدس ليس الا . ومن السهل اليوم ان نجد كثيرا من المثقفين الذين لم يقرأوا (العهد الجديد) ، ومن الممكن ان نحاول معهم تجربة دفعهم الى قراءة الاناجيل لالتقاط ما يسعهم التقاطه من تاريخ المسيح وخلقيه وافكاره .

الاناجيل في هذه الايام غامضة عند المستجدين

بيد انه لا يفيد ان تقرأ الاناجيل بعقلية لم تنهيا الا لتقبيل سيرة حياة غوته مثلا ! انك لن تفهم منها شيئا ، ولن تستطيع

١ - يقصد شو ان الرجل الصيني الذي اعتاد قراءة (كونفوشيوس) واتبع عقيدته الدينية التي تقوم على مفاهيم شبيهة ببعض ما ورد في الانجيل قد يدعى ايضا من امور يجدها في الانجيل تخالف عقيدته .

الاستمرار في القراءة وسيدركك ملل. ونفاد صبر يمنعك من المواصلة الدائبة في المطالعة الا اذا كنت على بعض معرفه بتاريخ تطبيق الخيال الانساني على الدين . قبل مدة ليس بالطويلة ، سألت احد الكتاب الذين امتازوا بكفاءة ثقافية عالية : هل قام في صباه بدراسة للاناجيل ؟ فأجابني انه حاول ذلك في وقت متأخر ، وأضاف يقول : «لكنني وجدت الامر كله تافها ، حتى اني لم استطع الصبر عليه» ولما كنت اكره ان أبعث احدا ما الى الاناجيل ليعود اليّ بهذه النتائج ، فيحسن بي ان اقدم مختصرا للمقدار المطلوب من التاريخ الديني لجعل الاناجيل وتصرفات يسوع ومصره الاخير مواضيع مفهومة شيقة .

دنيوية الاغلبية

اول خطأ عام يجب الانتباه اليه والتخلص منه ، هو القول ان الجنس البشري يتألف من كتله عظيمة من المتدينين وقلة من الملحدن الشاذين الغريبين الاطوار . وفي الواقع ان العالم يحتوي كتلة هائلة من الناس المهتمين بأمور الدنيا ، ونسبة مئوية صغيرة جدا من الاشخاص المنصرفين انصرافا تاما عميقا الى الدين والمنشغلين بامر ارواحهم وأرواح غيرهم من البشر . ومعظم الفريق الثاني يتألف من مؤيدي الديانة السائدة تأييدا يتميز بحرارة العاطفة ، ومن مهاجمي الديانة السائدة بعين الحرارة والحماسة العاطفية . اما الفلاسفة الاصلاء فعدددهم قليل جدا . ولذلك فلن تجد عندك شعبا من ملايين الويرليين (١) ومن توم بين

١ - نسبة الى جون ويرلي John wesley (١٧٠٢ - ١٧٩١) وهو احد كبار الواعظين المسيحيين ومؤسس المذهب الميثودي Methodist

واحد (١) وإنما ستجد مليون (مستر رجل متزن دنيوي) (٢) و(ويليا) واحدا مع اتباعه القلة ، و(توم بينا) واحدا مع أتباع أقل . أما الديّنون الفيورون فهم فئة أخرى لا علاقة لها بهؤلاء فئة عاطفية لو لم يتفوق عليها الدنيويون تفوقا عدديا لقلبوا الدنيا عليها سافلها ، إذ نال الرسول بولس ما يستاهل من تأنيب واعتزاه ذلك (٣) . ان قليلا من الناس يتمكنون ان يحصوا من بين اصدقائهم الشخصيين ملحدا واحدا ، او اخا بلايمونيا (٤) واحدا وان لم يؤد انقلاب ديني فينا الى الملاذ بالمجتمعات الصغيرة التي تنتمي اليها تلك «الطيور النادرة» فسنقضي حيواتنا مع اناس

١ - Tom Paine (١٨٢٧ - ١٨٠٩) كاتب انكليزي ديني وسياسي ، عاش في امريكا . من كتبه الشهيرة «حقوق الانسان» و«تأملات في النبوة الفرنسية» ضمنه آراء سياسية ثورية كانت مصدرا ونواة للعظم التشريعات الديمقراطية ، وما زال بعض المحافظين المتزمين الى يومنا هذا يعدون كتاباته خطرة على الانكار .

٢ - الاسم بالاصل هو Mr. worldly wiseman ، وهو احد شخصيات «بومبا» في كتابه (مسيرة الحاج The Pilgrim's Progress) الشهير ، وهو كتاب على شكل قصة يمثل رحلة جهاد للنفس البشرية للوصول الى الخلاص والمغفرة .

٣ - يرى بعض المفكرين ومن جيلتهم شو ان بولس صاع من تعاليم يسوع ومن افكاره يوما من العقيدة المسيحية يختلف عن الاهداف التي رمى اليها يسوع من تعاليمه .

٤ - سمى الى مدينة (بلايموث Plymouth) في انكلترا . سميت بشأ (١٨٣٠) مذهب مسيحي صارم ، لا يعتمد اشياعه بغير التوراة دليلا وهاديا لهم في الايمان وفي الآداب الاجتماعية . غلبت عليهم الرهابة والنقشف والبعد عن اللذائل والسليات . واستغنوا عن الكهنة والرعاة .

ذوي ضمائر لا تحس . مع أناس ذوي جوع وعطش لا إلى الحقيقة ، بل إلى فاخر الطعام ، إلى لسعة الراحة ، وامتياز المركز الاجتماعي إلى شريكات العمر الجميلات ، والرفاء والمرات والرفعة والاحترام ، وبمختصر القول بين أناس ذوي جوع وعطش للحب وللمال ، كائنا ما كانت العقائد التي يرددونها والمعابد التي يقدمون لها فرائض التجلة ويلبسون لها ثياب الاحد . بالنسبة إلى هؤلاء الناس ؛ كل أمثلة وحكمة هي جيدة كسواها ، شريطة أن يكونوا متعودين عليها قادرين على احتمال قيودها دون شعور بضيق أو تعاسة . ولأجل الإبقاء على تلك الأمثلة تراهم يحاربون ، وينزلون العقاب بغيرهم ويرغمون أنوف الناس الآخرين في التراب دون وازع أو تأنيب ضمير ! هؤلاء العليستيون قد لا يكونون «ملح الأرض» ، على أنهم في الواقع مادة الحضارة وأرومتها . هؤلاء ، ينقدون المجتمع من الدمار بتخريجهم المجرمين والفاتحين ، فضلا عن تصديرهم أشخاصا من أمثال سافونارولا ونبردولنغ . وبما أنهم يدركون بذكائهم العظيم أن قليلا من الدين ، يفيد الأطفال ، ويخدم مكارم الأخلاق ، ويبقي الفقراء في واحة ودعة ، أو في خوف ورهبة بالوعد بأحسن الجزاء في السماء أو بالوعيد بأشد العذاب في السعير ، فلذلك تراهم يشجعون الاتقياء إلى حد معين لا يتعداه . فمثلا لو قال سافونارولا لسيدات فلورنسا بأنه يجب عليهن أن ينزعن جواهرهن وحليهن ويقربنها قربانا وتقديمه لله ، لسارع ذوو الحل والعقد إلى عرض قلنسوة الكردينال عليه وأثنا عليه ورفعوه إلى مقام القداسة ، إلا أنه أراد أن يحملهم بطريق الاقتناع أن يفعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم فاحتقروه بوصفه واحدا من المشاغبيين الذين يقلقون الراحة العامة .

دين الأقلية «الخلاصيون»

إن دين الأقلية المتسامحة كان دوما وأساسا هو الدين

الأصيل بداته . ولهذا لا يتأثر تأثيرا كبيرا بأي تبدل قد يطرا على اسمه وشكله ، ولهذا لا يشق على شعب كالانكليز بلغ درجة عالية من الحضارة ان يهدي الزوج الى الدين الذي يعتنقه ، الا انه لا يستطيع ان يهدي المسلمين او اليهود . يجد الزوج في مذهب «الخلاص» المصري «نسخة» تمنحه قسطا من الراحة يزيد عما تمنحه عقيدته الساذجة . الا ان المسلم واليهودي لا يجد في تلكم النسخة راحة وتعزية تزيدان عما في «نسختي» دينهما . لقد أصيب المجاهد الصليبي بدهشة عظيمة عندما وجد المسلم مندينا ورعا مثله تماما ، بل اكثر منه مدنية وتهديبا مما كان يظن . هذا وليس لدى المسيحي اللاتيني ما يقدمه للمسيحي الارثوذكسي ، مما لم يسبق للمسيحية الارثوذكسية ان زودته به ، فكلاهما بالاصل «خلاصيان» .

الا دعنا نتعقب هذا الدين ، دين «الخلاص» او «الفداء» منذ البداية . هنالك اشياء كثيرة جدا تحصل دائما مما لا يرغب فيه المرء الا اذا استحدثه هو بنفسه ، ومع ذلك فالموت والطواعين والعواصف ، والآفات الطبيعية ، والفيضانات ، وشروق الشمس وغروبها والنمو ، والحصاد ، والتحلل ومعجزة السماء المطرزة بالنجوم فوقنا ، وقانون (كانت) (١) الخلق في باطننا ، هذا كله

١ - Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فيلسوف مثالي ألماني مؤلف «نقد العقل الخالص» . و«القانون» الذي بشر اليه شوهر محاولة (كانت) ان يثبت ان في طبيعة العقل الفريزي ما يمكنه من الوصول الى بعض المعرفة دون اعتماده على ما تأتي به الحواس من العالم الخارجي اي ان تلك المعرفة لا تأتي من التجارب وانما هي كائنة في العقل ، وان الانسان لا يدرك ماهية الاشياء وجواهرها وانما يدرك ظواهرها الحسية في زمان ومكان محصورين . وقال في «نقد العقل العملي» ان الدين لا يمكن ان يخضع لاسس علمية وعقلية ، وانه يرتكز على دعاية من الاخلاق .

يحملنا على الاستنتاج بأن «أحدا» ما يتولاها جميعا ، أو ان احدا ما يقوم بعمل الخير ، وآخر بعمل الشر ، أو ان جيوشا من اناس غير مرتبين من الاشرار والاخيار ، تسولى عملها . ومن ثم وجب عليك ان تفترض كينونة لما يطلق عليه «آلهة» و«ملائكة» و«جنّا»، وانك لتعتمد الى استرضاء هذه «القوى» بالهدايا واستمالتها بالتقدمات والقرايين ، ومجاملتها باللق والمداهنة وتقليدها آيات الحمد والثناء ، ثم ان قانون «كانت» الخلقى في اعماقك يدعوك الى تفهم إلهك بوصفك قاضيا عادلا ، وتحاول ايضا رشوته وافساده بالهدايا والمداهنة . ان هذا يبدو لنا امرا شنيعا ، غير ان احتجاجنا عليه هو ظاهرة حديثة جدا . ففى عصر لا يبعد عن عصر شكسبير كان من الامور الطبيعية جدا ان يقدم الخصوم المتداعون هدايا للقضاة الذين ينظرون في دعاواهم وهم من البشر طبعاً ! في حين ان ادراء السخط الالهى بدفع المال النقدي للكهنة او للكنيسة «المستصلحة» (١) التى تدعى مفاومتها هذا التصرف بمشاركتها في اعمال الصدقات وتوزيع الخيرات وبناء بيوت الله وما اشبه — ما زال يجري ويقوم على قدم وساق . ومضارها العملية هي انها تحول تماما بين الفقراء وبين كل امل لهم فى البركة الالهية ، وتسهل الامور كثيرا للاغنياء . وهذا ما يعجل بالانتقاد الاخلاقى انتقادا بلغ بالفقراء حدا انهم سرعان ما وجدوا القانون الخلقى فيهم يثور على فكرة رشوة الآلهة بالذهب والعطايا وان ظلوا على اتم استعداد لرشوته بنقود المدح والثناء الورقية! (٢)

١ — اعني الفرق والطوائف والمذاهب التى قبلت بالاصلاح الدينى بدرجات متفاوتة .

٢ — لى هذا القول نكتة لاذعة من تلك التى اشتهرت بها كتابات شو ، فهو يعتبر النقود الورقية رخيصة بحسب قيمتها الحقيقية لا الاسمية ويشبه رخص المديح والثناء الفارغ برخصها .

وباحتراف عمل الندامة! وعلى هذا الأساس ستجد ان الدين يمكن ان يظل قرونا عدة في المجتمعات البدائية كما هو دون ان يعتريه تغير ، حيث ظروف الحياة لا تترك مجالا لسيادة الفن أو الفقر، وحيث عملية تقديم الكفارة للقوى الفائقة للطبيعة هي ضمن قابليات أقل القرويين شأنًا مثلما هي ضمن قابلية رئيس القرية . لكن ، ما ان تقبل المدينة التجارية ، وما ان تقوم «الرأسمالية» بتقسيم الناس الى قلة من الاغنياء وكثرة من الفقراء المعدمين الذين لا يعيشون الا بتق الانفس ، حتى تنجم حركة اصلاح ديني بين الفقراء ، ستكون هذه الحركة بجوهرها حركة تهدف «خلاصا رخيصا» أو مجانيا ! تماما . ولكي نفهم ماذا يقصد الفقراء بالفداء ، علينا ان نشرح بايجاز ما هو المقصود بالعدالة ؟

الفرق بين العقاب وبين الكفارة

ان فكرة العدالة البدائية بأبسط احوالها من وجهة مشروعية الانتقام ومن وجهة التفكير بموضوع التضحية ، انما تنبع بكتلتها وصفية هذين من قاعدة : «اسودان يُخرجان ابيض واحدا !» ومن قاعدة «اذا وقع اذى ، فيجب ان يدفع ثمنه اذى مقابلا» . ويبدو من الطبيعي المقبول عند اقلية الفلسطينيين النفعيين ان التعويض عن هذا الاذى يجب ان يقع على كاهل الجاني لما لذلك من التأثير الكابح الرادع لغيره ، ولكل من قد تسول له نفسه ارتكاب المعاصي . ان لحظة قصيرة واحدة من التأمل تظهر لنا بأن هذا «التطبيق الفلسفي» يفسد الامر كله . فمثلا سفك دم البريء لا يمكن ان يوازن بسفك دم العاصي . والتضحية بمجرم ابتغاء مرضاة الله بسبب قتله احد عباد الله البررة ، يشبه تضحيتك بشاة جرباء ، أو بثور مصاب بطاعون الماشية (داء ابي هذلان) . ومن

شأن مثل هذه التضحية إثارة السخط الإلهي بدل تهدئته. وبعملنا هذا نتقدم الى الله على شكل قربان ، ترضية لحقدنا ، وشفاء لعله انتقادنا ، بعملية تتضمن حماية ارواحنا بالسذات ، من دون ان يكلفنا ذلك أية خسارة . والكلفة هي جوهر التضحية او الكفارة . ومهما بلغ نجاح النفعيين في ارباك هذه المسائل عند تطبيقهم اياها وممارستهم لها ، فهي في مفهوم (الخلاصيين) مختلفة لا بل متضادة . عندما قالت بنت اخ البارون في رواية (ديكنز) (١) وقد اربكها فشل الشرطة في العثور على قاتل محامي عمها : « الاوفق كثيرا ان يشنق احد بالوهم من ان لا يشنق احد ! » ولم يكن اصرارها هذا مجرد شعور عام كثير الشيوخ في النفوس ، وانما كانت في الواقع تقف متأرجحة عند حافة الراي الخلاصي الاقل شيوعا والنادر وجودا ومنطوقة : « من الخير كثيرا شنق شخص بالوهم » وهذا يعني في واقع الحال ان الشخص المتوهم به هو اصلح الناس للشنق . والنقطة هي نقطة جوهرية لان المسيحية التاريخية (٢) ستبقي غامضة على انها منا حتى ندرسها دراسة استيعاب . زد على هذا ان اولئك الذين لا يهتمون قلاما تفسر

١ - ان (بنت اخ البارون) المقصودة هي المدعوة «فولينا ديدلوك» بنت اخ سر ليشستر ديدلوك في روايته هارلس ديكنز المسماة «البيت الكئيب» **Bleak House** (ألغها في ١٨٥٣) . تذكر فولينا هذه في الفصل الثالث والخمسين من الرواية القول الذي اقتبسه شو هنا .

٢ - يقصد مسيحية الاناجيل الاربعة التي تفصح عنها تعاليم المسيح والسوءات التي عزيت في اسفار التوراة وفسرت طبقا لها . وهنا يفصح شو بصورة غير مباشرة من رايه الذي ستحدده مفصلا فيما بعد - حول ان المسيحية التي جاء بها الرسل ووصلتنا تختلف واحيانا تتناقض مع (المسيحية التاويخية) مسيحية الاناجيل .

بالمسيحية التاريخية ، قد يطلقون سيقانهم للريح واكضين ليقعوا
في خطأ افتراضهم بأننا ان اطرحنا «الثأر» جانباً وعاملنا القتل
كما عامل الله قايين تماماً (اعني الاعفاء من العقاب ، ووضع وسم
عليهم يدل على انهم لا يستأهلون ان يضحى بهم ، وتركهم يواجهون
العالم بهذا الوسم) فلسوف نتخلص من العفوية ومن الفربان معا ،
وبعكس ما نظن ، فهذا لا يستتبع حتما شعورنا بأن (كفارة القتل)
قد تؤدي على اغلب الاحتمال الى سليم شخص ما بريء (كلما
كان اكثر براءة كلما كان افضل) الى قلة شناعة لموازنة الحساب
مع العدالة الالهية .

الخلاص اولا امتياز طبقي ؛ وعلاجه

سنظل نشعر بأننا خلاصيون من دون حاجة تلجئنا الي
تضحية والى ضحية ، حتى وان يقرر الفقراء ان طريقة «الخلاص»
بتقديم خراف وجداء او ذهب الى المذبح ، يجب اعتباره عملاً
خاطئاً لان حالتهم المالية لا تعينهم على ذلك . او انه من العبث
محاولتنا الاستعاضة عن تلكم الهبات بالطقوس الصوفية التي لا
تكلف مالا ، ولا تحمل عبئاً ، مثل الختان ، او مثل المعمودية كبديل
عن الختان وسيظل شعور بالعدالة فينسا يتطلب «كفارة» او
«تضحية» او ايجاد من يكابد عنا او يعاني بسبب آثامنا التي
اجترحناها . ان هذا يترك الفقير المعدم في ورطته الاولى . اذ كم
سيتعذر عليه ان يجد جارا له يحمل عنه وزره ، ويكابد عنه آلامه
بمحض اختياره (وهو الذي عجز عن تأمين تقديم الخراف والجداء
وشواقل الذهب) جار يقول له بكل محبة وطيبة خاطر « لقد
ارتكبت جريمة قتل فلا بأس عليك يا صاح ولا تخش شيئا لاني
مستعد لا قدم عنقي يدل عنقك المشنقة تكفيرا عن جريمتك !»

وهنا يجب ان يسرع «يسوع خيالننا» الى نجدتنا . فبدلا من الاستسلام الى القنوط في اصرارنا عبثا على كفارة منفصلة بغدية منفصلة لكل اثم او جريفة ، لم لا يكون عندنا كفارة عظيمة واحدة بغدية عظيمة واحدة ، حتى تتم تسوية الحساب عن كل ذنوب العالم صفقة واحدة ؟ ليس ثم أسهل من هذا ، او أرخص . ف «النير سهل» و«الحمل خفيف» (١) وكل ما ينبغي لك عمله هو ان تجد الغدية ، او ان تؤمن — بعد ان يخرمها لك خيالك بأن الصفقة المعقودة ، هي صفقة معقولة لا غبار عليها ، وانك ستؤمن «خلاصك» ولا تعود الخراف والجداء تسيل لها دماء ، وستنقض ابنية الهياكل التي تتطلب الهدايا الثمينة والاضاحي المتواصلة المتجددة . وستقوم اذ ذاك بيعة «الفادي الاوحد» مشمخة ، وتثبت اصول «الكفارة الواحدة» على انقاض المعابد القديمة وتغدو فهي بيعة المسيح الواحدة التي لا شريك لها .

الكفارة الرجعية (٢) وانتظار الفادي

على ان هذا كله لا يتم فورا . فبين «دين الاغنياء» الثالث الكثير التكاليف ، وبين دين الفقراء الطارف المجاني توجد فترة

١ — اشارة الى الايات الواردة في الانجيل : في ف ١١ من انجيل متى : «تعالوا اليّ ايها المرهقون والمثقلون جميعا فاني اربحكم . احملوا نيري وتعلموا لي . انا الوديع المتواضع القلب ، نحدوا الراحة في نفوسكم ، لان نيري لطيف وحمل خفيف» (والنير هو ما يجعل في صق الثور عند الحراثة، وهو هنا مجاز ومعناه وصايا المسيح وتعاليمه .

٢ — اي الكفارة ذات الانرجسي .

«خلو الكرسي» ! لا تجد خلالها اثرا «للفادي» المنشود وإذا ما كان الخيال قد توصل إليه، فذلك لان مجيئه متوقع تحت اسم (يسوع) او (المسيح) او (بالدور الجميل) (١) او ما شئت من اسماء مماثلة. وربما انه لم يجرى بعد فلا داعي للخطاة ان يقنطروا ويستسلموا لليأس . الحق يقال انهم لا يستطيعون القول ، كما نقول نحن «جاء المسيح واقتدانا» الا ان بوسعهم القول : «سيأتي المسيح حتما ويقتدينا» ذلك لان «الكفارة» ذات اثر رجعي ، وسيكون ذلك جزاء على اية حال . هناك فترات تمر بالشعوب والامم تراها تفور وتغلي غليانا بالترقب والشوق فتصرخ عاليا بنسوة « قدوم الفادي» على السنة شعرائها وملهميها ولاجل ان نشعر بجو مماثل، ما علينا الا ان نتناول التوراة ونقرأ نبوءة «اشعيا» (٢) بوصفها نهاية لفترة فائرة كالفترة التي تحدثنا عنها . ثم نعود لنقرأ «لوقا ويوحنا» بوصفها نهاية لفترة اخرى .

تمام المشروع على يد لوثر وكالفن (٣)

أنا لثري ديننا يتطور تطوراً طريفاً ، الا انه تطور غير مفهوم .

١ - Baldur the Beautiful هو ابن اودين Odèn اله الشمس في الاساطير الاسكندنافية .

٢ - اشعيا هو احد كتاب التوراة (العهد القديم) ويعرف سفره (بنبوءة اشعيا) كتب في القرن الثامن ق.م وبعد احد كبار انبياء اسرائيل الاربعة . امتازت نبؤته بشدة وقوة شامريتها . وقد ذكر (ملافة) المسيحية انه تنبأ بولادة المسيح يسوع من العذراء مريم .

٣ - ان مارتن لوثر الالماني Martin Luther ١٤٨٣ - ١٥٤٦ الالهوتي الالماني زعيم الإصلاح الديني البروتستانتي هو اشهر من ان يُعرف . وكذلك جوهان كالفن Johannes Calvin ١٥٠٦ - ١٥٦٤ فهو لاهوتي ومصلح ديني سويسري -

نراه ينقلب من محاولات سخيفة بدائية ساذجة لاسترضاء قوى الطبيعة المدمرة ، الى فقه (لاهوت) واسع الحيلة تحفت به شعائر كثيرة التكاليف من التضحية ، يقدر عليها الاغنياء فحسب بوصفها نوعا من انواع الترف ليتحول اخيرا الى دين لوثر وكالفن . ولا سبيل لنا الى الانكار بأن الانماط الاولى منه كانت تتضمن تضحيات حقيقية تماما . فلم تكن الاضاحي والقرايين دائما اضاحي وعوية كهنوتية ، كما لم تكن كذلك عموما . في الهند يعرض الرجال جلودهم للضرب طوعا ، فيعذبو انفسهم تعذيبا مروعا ليبلغوا درجة العداسة . وفي بلاد الغرب كان القديسون يدهلون الناس ، بصرامتهم وأخذ انفسهم بالشدة في جلد أجسامهم بالسياط ، واعتراقاتهم وسهرهم المتواصل . الا ان لوثر اتقننا من هذا كله . فاصلاحاته كانت انتصارا للخيال وانتصارا لرخص الاسعار ! لانه جاءك «بخلاص» كامل ولم يتطلب ثمنا له منك غير الايمان . اذا حللنا عمل لوثر التحليل العلمي الاجتماعي الذي نعرفه فسنجد انه لم يكن يعلم ماذا يفعل ! على ان يريزته خدمته أكثر مما تستطيع المعرفة خدمته . والفريزة بالآخرى ، لا القوى اللاهوتية هي التي جعلته يتمسك بعزم شديد - بالمسوغ عن طريق الايمان . فالايمان عنده هو الورقة الرابعة التي غلب بها البابا ، او كما وضعها هو بالصيغة : «العلامة التي يجب ان تتم بها الفلبة» . قد يمكن القول انه الفى «رسم الدخولية» الى السماء (1) . على

فرنسي . كانت صرامته الدينية وأخذ أتباعه بالشدة سببا أدى لوسع الكالفينية بـ «الايمان الخالي من اية مسرة» .

١ - كان المبدأ (احساج) لوثر على ما يدعى «بصكوك الفقران» وهي براءات كان قد أصدرها البابا تضمنت ابتاع منها «عقرانا للنوبة وصعودا مباشرا الى الجنة . وهذا ما يقصده شر بقوله «رسم الدخولية» .

ان مار بولس الرسول نادى بهذا في الواقع ، لكن لوثر وكالفن حققاه .

« جون بارلي كورن » (١)

على ان هناك «صفحة» اخرى في تاريخ الدين يجب ان تدرس وتضم قبل ان تفهم سيرة حياة يسوع فهما تاما . والناس الذين يملكون جلدا وصبرا على قراءة الكتب الضخمة يجدون هذه «الصفحة» في كتاب «فريزر» الموسوم (بالقصص الذهبية) . والناس الاكثر من هؤلاء سداجة يجدونها في اغنية (جون بارلي كورن) الريفية التي غشيت اليوم غرف استقبال هواتنا ، ضمن مجموعة من اغاني سومرست شابر الشعبية لمؤلفها مستر سيسيل شارب . سنتعلم من مؤلف فريزر العظيم ، كيف ان المنطق البدائي نفسه هو الذي يجعل الانكليزي يؤمن اليوم بأن اكله البفتيك (٢) يكسبه قوة الثور وشجاعته ! وكيف يواجه هذا الزعم اخزي الهزائم امام المصارعين والعدائين وراكبي الدراجات النبائيين الذين لا يدوقون لحما . وهو المنطق الذي كان يقسود ويهدي اكرية من ادرك الله بوصفه قابلا للتجسد ، وجعلهم

١ - «جون بارليكورن» عنوان قصيدة فولكلورية بهذا الاسم وهي مأخوذة من بارلي : شعر ، وكورن وهي حبة او ثمرة . والتعبير بأجمعه يعني بالكلام الدارج «الويسكي» لانه يستفطر من الشعر . وشو يشير الى عملية التحول هذه بصورة خاصة في عبارته التالية .

٢ - علينا ان نتوه هنا بأن شو قبائي لا يأكل اللحم ، فهو لهذا السبب مفرص تجاه البفتيك !

يعتقدون بأن في امكانهم اقتباس شرارة من الوهيته باكل لحمه وشرب دمه . ومن اغنية (جون بارلي كورن) تعلم كيف ان معجزة «البذرة والنمو والحصاد» ما زالت أروع كل المعجزات ، وما زالت حتى الآن أعصى على التفسير والفهم كما كانت . ان هذه المعجزة علّمت الفلاح الساذج - وعلينا ان نؤكد هذا - بأن الله موجود في البذرة ، وانه خالد لا يموت . فاصبح من مقتضى الربوبية والحالة هذه - انك لا تستطيع قتلها مهما حاولت . عندما تظمر بذرة الربوبية هذه ، ستبعث ثانية ، بحياة وجمال متجددين مانحة البشرية حياة خالدة سرمدية شريطة ان تؤكل وتشرب ثم تذيب وتدفن لتبعث حية مرة بعد أخرى الى ما لا نهاية . ولك ، بل عليك في الواقع ان تستخدم ما اطلق عليه جون بارلي كورن «البربرية الصحيحة» right barbarouslee (١) وان «تقطعه من عند الركبة بمناجلك وتجعله بسياطك وتدغنه في التراب» فلا يبدي مقاومة ولا عتابا . بل سيبعث حيا بجمال ذهبي ، وسط دفقات عظيمة من اشعة الشمس وتفريد العنادل فيخلصك ويجدد لك حياتك . ومن جدل هاتين الاسطورتين معا ومزجهما باللهفة لمجيئه ، سيكون خالدا مؤبدا وسيقدم لنا جسده لتأكله ودمه لنشره ، وسيثبت الوهيته باحتمال ميتة مروعة بربرية دون ان يتمرد أو يقاوم . ليقوم بعدها من بين الاموات ويعود الى العالم ممجدا ، باعتباره مانحا الحياة الابدية .

١ - مثل هذا المصطلح لا نجده في المعاجم الانكليزية فهو من عمل ونحت صاحبه ، اتخذته للتعبير عن فكرة تجديد نمو البذرة . كما يتضح المقصود من العبارة التي تلت التعبير . فالقمح عند تكامل نمو السلسلة يقطع من عند الركبة ثم يدوس ويدق ليخرج منها الحب الذي يزرع وتهال عليه التربة ويدفن لينمو مرة أخرى .

ارتقَاب نهاية العالم

على ان ثمة اعتقاداً ثابتاً يضائق افكار المتدينين ويشد عليها خناقاً منذ ان انتشر الدين بين الفقراء او بالاحرى منذ ان انتجت المدنية التجارية طبقة من المعدمين المحرومة حرماناً تاماً من متع الحياة . ومجمل هذا الاعتقاد ان نهاية العالم قد اقتربت وباتت فهي على قاب قوسين او أدنى منا . وان العالم لن يلبث ان يقنى ويعقبه فوراً مملكة السعادة والعدل والرغد التي لن يكون للاغنياء فيها نصيب ولا للظالمين والمضطهدين . هذه الامنية نعرفها جميعاً وهي من الاماني المألوفة . لا يعدم اكثرنا ان يجد قريباً له تقياً ورعاً يرى في كل تكبة عظيمة اشارة الى نهاية العالم الوشيكة . والايدي تتداول في هذه الايام وبصورة مستمرة ، كراريس تنذر بهذا النبا ، بل انك لو اجدت اعلانات بهذا المنحى - ينشرها فسي الصحف ويدفع اجر نشرها اولئك المؤمنون ، المروءون بلا ابالية اللادينيين ، هذه الاعلانات كلها تتحدث عن حتمية المصير ودنوه ، والواعظون بالقيامة والبعث اليوم هم هم كما كانوا ايام يوحنا المعمدان ينذر ان يكفوا عن اذمار رعيتهم بان « يرتقبوا او يصلوا » حيث ان « اليوم الاعظم » يسترق اليهم الخطى مثل لص الليل ، في دنيا ملئت بالخبايا والشرور ، وانه لا يمكن ان يتأخر طويلاً . هذا الاعتقاد يتفق مع الرأي (البارلي - كورني) القائل بالمجيء الثاني . وهكذا ترى الحادثين يتضحان اخيراً . وتسم الجانب الآخر المصطنع اكثر من سواه من هذا الاعتقاد وفيه يتجسم الخوف المتأصل . ان الحاكم الذي يلجأ الى ترويع فكرة المصحح السماوي والامل بالراحة الابدية لتعزية المعدمين والابتعاد بهم عن فكرة الثورة والانتفاض ، يستأصل ايضاً الاشرار ، ويقطع دابرهم بتهديدهم بنار جهنم . واننا لنجد (محمداً بن عبد الله) فسي القرآن يميل اكثر فاكثر الى هذه الطريقة من الحكم . وقد ايدت

التجربة اعتقاده الواضح بأن الحكم مستحيل بغير هذا ، وفي درجات معينة من المدنية . وسنرى فيما يلي أن الخضوع لهذه العقيدة يؤدي إلى ميل شديد للإيمان «بالفادي» ما دامت تضيق إلى تأنيب الضمير (قلما يشعر بوطأته غلاظ القلوب) خوفا أكيدا من العذاب الأبدي الهائل الذي لا يمكن وصفه .

شرف الآبوة الالهية

هنالك تقليد أسطوري يجب علينا ملاحظته واعطاؤه حقه من التأمل : وهو أن من كمال المديح للملك من الملوك ، قولك بأنه لم يولد من انسان بل من إله . والحكاية كما وردت عادة واحدة تقريبا: تذهب أم هذا الملك إلى معبد أبولو فيأتيها أبوللو هذا بهيئة أفعى أو ما أشبه . ولقد اتخذ أباطرة الرومان لقب الالهية ونسبوا أنفسهم إلى سلالتها متأثرين خطى أوغسطس . وأنت لتجد هؤلاء «الملوك الالهة» يصرون أصرارا (منطقيا) شديدا على أن أسلافهم هم أيضا وفي الوقت نفسه من «الملوك البشر» ! فالاسكندر المقدوني الذي يدعي أنه ابن لأبوللو يصير كذلك على أنه ابن لفيليب . وأما موقف الاناجيل من ذلك ، فمتى ولوقا (١) الرسولان يشبان كل في انجيله شجرتي نسب متناقضتين للاستدلال على انتساب يسوع من جهة يوسف أبيه إلى بيت داود الملكي . ومع هذا يقولان

١ - كتب لوقا انجيله في رومية للمسيحيين اليونانيين أو الرومانيين ، ذكر أحدهم في مقدمته وهو ثاوفيلس الذي أهدى إليه الكتاب كما جرت عادة كتاب الأقدمين وأخذ الشيء الكثير من أخبار يسوع من انجيل مرقس . أما الأخبار والاقوال التي انفرد بها فقد أخذها من أقواله من سمعوا يسوع . وكان لوقا يونانيا .

ان اياه لم يكن يوسف بل الروح القدس وهذا اقحام متاخر
اقتبس من التقليد التاريخي الامبراطوري (اليوناني ثم الروماني).
الا ان التجربة برهنت على ان الايمان بنزول المسيح من صلب
داود ، وبانه حبل به من الروح القدس في آن واحد ، هو ايمان
ممكن . ومثل هذا الايمان المزدوج تتقبله الازهان البشرية من دون
قلق او شكوك بسبب ما يتضمن من تناقض . وفي امكاننا ايراد
عدة امثلة لذلك . منها قضية معروفة للجيل الذي انا منه ، هي
قضية «الدعي تجبورن» الذي لقيت محاولته في انتحال
البارونية (1) مساندة من احدى نقابات العمال ، على اساس كون
افراد أسرة «تجبورن» الحقيقيين يرمون الى تجريد عامل مسن
حقوقه بمقاومتهم محاولة الانتحال تلك ! ومن المحتمل جدا ان
القديسين متى ولوقا كانا غافلين عن التناقض الذي وقعا فيه .
والواقع ان الصعوبة والاشكال لا يرتفعان بنظرية «الاقحام» . اذ
لا شك ان القائمين بهذه العملية هم انفسهم لا يدرون بها . وثم
سبب آخر اقوى من هذا السبب للشك بحصول «الاقحام» ، وهو
ان بولس الرسول لم يعرف شيئا عن الولادة الالهية ، بل كان حل
ما يعلم ان يسوع جاء الى هذا العالم باعتباره ابنا ليوسف
النجار . الا انه قام من بين الاموات بعد ثلاثة ايام من وفاته
باعتباره ابنا لله . وقليل من الناس هنا ايضا من يلاحظ هذا
التناقض ، والعقل المشقف يقبل وجهات النظر الثلاث في آن
واحد دون حيرة او ارتباك . ذلك لان في مقدورنا ان نعتنق نصف
دزينة من الروايات المتناقضة لحادثة ، اذا كنا نشعر نحوها باحد
شعورين : اما انها لا تهم كثيرا واما ان هناك حلا وسطا يمكن
التوصل اليه للتوفيق بين هذه الروايات المتناقضة . الا ان

التناقض ليس بالقضية التي تشغل بالنا الآن . وكل ما ينبغي ان يلاحظ الآن هو انه لم يكن ثم مندوحة من ربط الاسطورة المتعلقة بالولادة الالهية عاجلا ام آجلا بالشخصيات البارزة جدا في عهد الامبراطورية الرومانية . وان اللاهوتيين المعاصرين لا يكذبونها ، بالعكس فانهم يؤكدون الحبل العجائبي بكل ما وسعهم من منطق لا بالنسبة الى يسوع وحده بل بالنسبة لاهه ايضا .



بافتقارنا هنا الى مواد بحث ووسائل تقصّ أكثر من عادة التخيل البشري لا مانع ان يقرأ كل امرئ الاناجيل الاربعة على ان لا ترافق قراءاته الدهشة والارتباب الساخر اللذان يتلفان مزاج كثير من ملحي عصرنا . وأن لا يلازمها ذلك الايمان السخيف الذي يحمل الاتقياء والورعين احيانا على ارغامنا كارهين على ركلهم ودفعهم منا جانبا في وقت الضرورة وحين تحتم علينا الظروف ذلك بوصفهم من طبقة المجدولين اللاواقعيين ، حين يطلبون منا مواجهة العنف والظلم بالخنوع الابكس الصامت ، اعتقادا منهم بأن سلوك يسوع امام بيلاطس كان يقصد به ضرب مثل للسلوك الاعتيادي الذي يجب ان يتخذه البشر . الادعنا نسلم بان الاناجيل مجردة عن الدلائل السديدة المقنعة ، ان هي الا هراء لا يصدقها المثقف العصري . وأن قصص الرسل (١) لا

١ - قصص الرسل او اعمال الرسل وهو احد اسفار العهد الجديد . الفه لوقا الانجيلي بعد السنة ٦٤ وقبل السنة ٧٠ م كما تقدم في موضوع انجيله . ويتضمن هذا السفر الكبير قصة انتشار الدين المسيحي في المعمورة وحياسة الرسل وتعاملهم مع الناس ورحلاتهم وموقف السلطات منهم الخ ... يتضمن ايضا الرسائل التي كان يبعث بها بولس الرسول الى المؤمنين والتلاميذ وفي اغلبها قواعد ومبادئ أصبحت جزءا من المفاهيم المسيحية الحالية .

يمكن ان تقرأ البتة ، الا ان قراءتها بوجود أدلة قد تكون ممكنة الى حد ما . وهنا يبدو لك يسوع شخصا جامدا غير مفهوم . كذلك تغدو الاسباب التي دفعتته الى التقدم «كالخروف المقاد للدبح» بدلا من انقاذ نفسه كما فعل محمد بن عبد الله اسبابا واضحة تماما . وتبدو لك الحكاية موثوقة كأية حكاية تاريخية اخرى معاصرة لها .

الفصل الثاني

متى

البشارة - المنبحة - الفرار

الا فليبدأ بانجيل متى ، وليكن معلوما لدينا ان صاحب هذا الانجيل لا يدعي بأن ما كتبه هو تقرير لشاهد عيان ، بل هو تأريخ كالتواريخ الأخرى بني على شواهد ومعلومات مما يكون عادة في منناول المؤرخ . ان من يدعي من الانجيليين ، بأنه وحده صاحب اولى الشواهد لكونه الشاهد العيان ، لا بد يحرض بنوع خاص على ابراز ذلك ونشره بين الملأ ، وبما ان متى لم يزعم لانجيله هذا الزعم وانما يعترف بأنه كتب كتابة مؤرخ بحث من الالف السى الياء ، موضحا بأنه يقص قصة يسوع مثلما قص هوليشيد قصة ماكيت خلا ان متته لسبب سيدكر من بعد - جمع مادته واكمل سيره في حياة اشخاص ثبت ثبوتنا قاطعا انهم عاصروا يسوع . وعلينا ان نأخذ في نظر الاعتبار ايضا انه كتب سيره باللغة اليونانية في حين ان الروايات الاولى عن يسوع ، والاقوال المعزوة

اليه فعلا ، كانت بلا شك باللغة الآرامية لغة فلسطين الدارجة في زمانه . هذه المميزات مهمة كما ستجد ذلك ، عندما تقرأ هولنشييد او فرواسار ثم تقرأ بعدهما بنفوتوشليني (١) . انك لا تنحي على هولنشييد وفرواسار باللائمة لايمانها بالاشياء التي قرأها او سمعها وترديدها لها وان كنت لا تستطيع دائما تصديق هذه الامور انت نفسك . لكن عندما يحدثك شليني بأنه رأى هذا او فعل ذلك ، فستجد من المتعذر عليك ان لا تنسى بأن متى هو هولنشييد وليس بنفوتوتو والصفحات الاولى بالذات من قصته ، ستضع سلوكك تجاهها على المحك .

يخبرنا متى بأن أم يسوع خطيب لرجل ينحدر من نسل الملوك اسمه يوسف وأنه كان في سعة من عيش تسمح له بالسكنى في منزل بيت لحم ، كيلا يستغرب من «الملوك» تقديم هدايا له من ذهب دون ان يشير عملهم هذا اي تساؤل (٢) يحدثنا ان ملاكا أعلن ليوسف بأن يسوع هو في الواقع ابن الروح القدس . فيتحتّم عليه والحالة هذه ان يمسك عن اتهام الأم بالزنا بسبب حملها جنينا ليس هو ابا له . الا ان هذه الرواية تختفي ولا يبين لها

١ - يشير شو منا الى الفرق بين «مؤرخين» مترجم كتاباتهم بالاساطير مثل هولنشييد (ت ١٥٨٠) وفرواسار (ت ١٤١٠) ، وبين شاهد ميان بخط مذكراته كشليني ب ١٥٧١ (ب ١٥٧١) .

٢ - يشير شو الى ما جاء في متى ف:٢٠ كان المجوس الذين اعتبرهم شسو ملوكا اناسا يرقبون النجوم وقد قدموا «الى اورشليم من المشرق» وقالوا ابن الملك الذي ولد لليهود لا فقد برأيتا نجمة طالما نجئنا لتسجد له» ... «واذا النجم الذي راوه طالما يتقدمهم حتى بلغ المكان الذي فيه الطفل قوف فوقه . فلما ابصروا النجم فرحوا فرحا عظيما جدا ودخلوا البيت فرأوا فيه الطفل وامه مريم ، فحشروا له ساجدين ثم فتحوا حقائبهم وأهدوا اليه ذهباً وبخوراً ومرآة» .

اثر في الوقائع التالية ، ولا تجد ثم ذكرا او اشارة لوصول اية معلومات له بخصوصها . والواقع ان السرد يستمر بصورة عامة وكأن هذه «البشارة» ليست جزء منها !

ولا اعتقاد هيرودس التبرار ان طفلا مولودا سيقدر له ان يحوز سلطانا يمكنه من القضاء عليه ، يصدر امرا بقتل كسل الاطفال الذكور ، الا ان يسوع يتجو من المذبحة بقرار ابويه به الى مصر وعودتهما بعد زوال الخطر الى مسقط رأسهما الناصرة . وهنا علينا الاستنظار قليلا لنقول : ليس بين الانجيليين من يقبل بهذه القضية ، كما انه لا يقبل احد منهم بيوحنا الذي يرفض كل ما جاء في انجيل متى برمته ويقاسمه الشذوذ في تناول التاريخ وكتابة السيرة بوصفهما مجرد وقائع حققت نبوءات يهودية غابرة . هذا الخيال ادى به بلا ريب الى البحث عن اسطورة ما لتحقيق نبوءة هوشع : «من ارض مصر دعوت ابني» ، ونبوءة ارميا (١) عن راحيل «التي تبكي اولادها» وهو في الواقع يؤيد هذا وكل ما يدور حول معقولية قتل الاطفال الابرياء ، والفرار الى مصر وهو مما لا يجتذب اهتمامنا اليوم . وبامكاننا نسيان الموضوع والالتفات الى الجزء المهم من الحكاية التي تقفز راسا الى عهد رجولة يسوع .

١ - ايرميا (ارميا) ابن حلقيا اللاوي ، بث نبؤاته في عهد يوشيا الملك وليستر بعد خراب اورشليم على يد نبوخذنصر البابلي في اعام ٥٨٦ ق.م . دون تلميذه باروخ نبؤاته . ويفلب الباحثون ان باروخ كتب جزءا من سفر ايرميا المعروف وان كتابا لاحقين زادوا عليه . ويعتبر هذا النبي من الاربعة الكبار عند اليهود .

وهوشع Hosea هو احد انبياء اليهود الاربعة الكبار الاوائل عاش في حدود القرن الثامن ق.م . كان يحث مواطنيه على ترك عبادة الاصنام الى يهوه ومن الفقات الذي ينتظرهم .

يوحنا المعمدان

في هذه الساعة ، راح نبي (خلاصي) يدعى يوحنا يشير الناس اثاره شديدة باعلانه ان فريضة الختان لا تكفي لتكريس المرء نفسه للرب وانه يعتاض عنها بفريضة (العماد) . ونحن الذين وجدنا ان لا مناص لنا من المعمودية ، ورأينا في الختان عملية غريبة عننا تافهة لا بل مهزلة من المهازل . كان هذا الاثر العظيم للهرطقة الممعدانية على اليهود ، شيئا غير مفهوم بالنسبة لنا ، اذ بدا لنا قيام يوحنا بتعميد الناس امرا طبيعيا جدا لا غبار عليه ولا يختلف عن اية عملية يقوم بها راعي كنيسة في القرية ، لكن نبذ فكرة الختان والاستعاضة عنها بالمعمودية كان في نظر اليهود بمستوى نبذ فكرة تحول مادة الخبز ومادة الخمر الى لحم المسيح ودمه اثناء مراسيم «القداس» عند كاثوليك القرن السادس عشر ، كما قضى سوء حظ بولس الرسول ان يكتشف ذلك فيما بعد .

يسوع ينضم الى الممعدانيين

دخل يسوع وهو ابن الثلاثين على حد قول لوقا ، حياة عصره الدينية مؤمنا بعقيدة يوحنا المعمدان . وابتدا بان طلب من هذا النبي المعمودية كما كان يتقدم قبل اربعين عاما كل جنتلمان شاب ميسور الحال بطلب «الانضمام الى نخلة الاشتراكيين» وبقدر ما يتعلق الامر بالعقيدة اليهودية السائدة وقتذاك ، كان يسوع بعمله هذا ، كمن احرق سفنه وقطع من نفسه روتين الثروة والمال والتمسك بالدين القويم (١) . ثم انه بدأ يعظ بانجيل بشارة يوحنا

١ - اعني انه اتخذ طريقا لا عودة منها بالافتئات على اعظم مقدمات دينه وشريعته ، شريعة موسى ، فحكم على نفسه بالزنج من العقيدة اليهودية رغم انه كان يبدو مقبها عليها .

المعمدان الذي كان يدعو الناس الى التوبة والاستغفار لاثامهم وخطيئاتهم ، لان ملكوت الله قد دنا وهو الآن بمتناول اليد ! فضلا عن دعوته الى زندقته . . . العماد ! تلك الزندقة التي تكمن قيمتها الحقيقية في اجتذاب الوثنيين اي (غير المتخشين) الى حظيرة الخلاص . ويضيف لوقا قائلا انه وعظ ايضا بشيوعية الاحسان والصدقة ، حين نبّه العشارين بان لا يشتطوا فسي اعتصارها من المكلفين بها . ونصح الجنود بان يقنعوا بتمريناتهم العسكرية ولا يستخدموا العنف ولا يهتموا الآخرين كذبا وزورا . وليس في الروايات ما يشير الى ان يوحنا المعمدان ذهب الى ابعد من هذا .

يوحنا الهمجي ويسوع الحضري

لم يسع يسوع الا ان يمضي الى ابعد من هذا على ما يذكر متى . ومع انه انقلب واعظا جواً الا مثل يوحنا الا انه نأى كثيرا عن أسلوب عيش زميله هذا . فيوحنا خرج الى البرية القفر ، ولم يغش الكنيسة . وكان جرن عماده نهر الاردن . واخذ بحياة الزهد والتنسك فستر جسده بجلود الحيوانات ، واقتات على الجراد وعسل البرية يعيش عيشة وحشية صارمة . وراح ينشد الشهادة فنالها على يدي هيرودس . على ان يسوع لم يجسد فضيلة ما لا في التقشف ولا في حب الاستشهاد . فهو على الضد من يوحنا حضري من اساسه مهذب الى درجة عالية ؛ ويقول لوقا ان يسوع نفسه اشار الى الفرق بين هاتين الحالتين موبخا اليهود لقولهم ان يوحنا فيه مس من الجن وان الشيطان قد ركبه لانه نباتي لا يقرب اللحم ولا يشرب الخمر . كما انهم عندما اتجهوا اليه هو ايضا وراحوا يثلبونه وينتقصونه ويعيبون عليه شربسه

الخمر والشرافة ومجالسة (العشارين) والعاهرات ؛ وأندرس يسوع
تلاميذ له متزمتين ، بأنهم سيصادفون متاعب كثيرة من الناس ،
دون أن يسببوا لغيرهم أية متاعب وأوصاهم أن يجتنبوا الاستشهاد
وأن يتمتعوا أنفسهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وقال لهم «إذا
اضطهدوكم في هذه المدينة انقلبوا إلى الأخرى» . وكان يعسظ
الناس في الكنيس مثلما يعظهم في الأرض البراح والعَرَصات
سواء بسواء ، أيهما صادف ، ويردد القول دوما «أني أريد رحمة
لا ذبيحة» موضحا أنه يريد بذلك ثبوتة نفسه من الوهم المتأصل
في النفوس ، وهو نشد من مرضاة الله في مكابدة صنوف العذاب .
«لا تكونوا مثل الفريسيين ، لا تسلكوا سلوكهم فإنهم يقولون ولا
يفعلون» (١) وهو كذلك طيب المجلس حسن المعشر ، يشارك موظفي
الرومان مواعدهم ، ويلازم لأنه لا يفصل يديه قبل الطعام ، ويخيب
آمال أتباع يوحنا الذين يصومون ويتوقعون أن يجدوا المسيحيين
أكثر تقشفا منهم ، عندما يجدونه هو وتلاميذه الاثني عشر غسир
صيام . فيقول يسوع لهم ، أن عليهم أن يقرحسوا به بدل أن
يكتسبوا . وهو مرح هازل إذ تراه يقول لهم أنهم لا يلبثون أن يجدوا
صياما كثيرا ينتظرهم جميعا شائوا ذلك أم أبوا . وهو لا يخشى
المرض ، فتراه يواكل الأبرص ، وتقدم امرأة منه (تريد وقايته من
العدوى كما يبدو) فتسكب عطرا غالي الثمن على رأسه ، فيتعرض
لانتقاد شديد ، إذ كان الأخرى به أن يوزع ثمن العطر على الفقراء
والمحتاجين . فيسخر من هذه الفكرة القبضة للنفس ويردد دائما

٢ - متى ٥ ف ١٠ «وإذا لم تقبلوا ولم يسمع كلامكم ، فاخرجوا من ذلك
البيت أو تلك المدينة فالضيق الضيق من أقدامكم» . . . «وإذا طاردوكم من مدينة
فاهربوا إلى غيرها . وإذا طاردوكم في هذه أيضا فاهربوا إلى بلد آخر . . .» .
وفي ف ٢٢ : من متى هجاء مقدع بحق الفريسيين والكتبة . قفراجع .

قوله (عندما ينتقد) ان الفقراء هم دائما موجودون جل ان تمد لهم يد المساعدة ، ولكنه لن يكون معهم دائما . ويوصي بقوله «عليكم ان لا تضيعوا فرصة السعادة عندما يوجد هذا القدر العظيم من البؤس في العالم» . وهو يكسر عظمة السبت ، ويضيق ذرعاً باتباع الاعراف والتقاليد عندما يكونان مصدرا للضيق والازعاج او عندما يقفان عقبة في سبيله . وهو يثير استنكار اليهود ويطعن مشاعرهم في الخروج عنها ويقدم على اتهام الناس الذين يعيشون في هذا الرياء . وهو كالطبيب الذكر صموئيل بطر ينظر السي المرض بمثابة نوع من الائم فتراه يقول عندما يشفي الاعرج : «مغفورة لك خطاياك» ، بدل قوله «انهض وامش !» زاعما من ثم ان مغفرة الخطايا وشفاء الامراض كلاهما شيء واحد . وعندما انتقده الكتبة (١) لادعائه السلطان على هذا ، لم يكن في ادعائه اي تواضع فقد زعم انه اعظم من سليمان ومن يونان (٢) . وعندما

١ - يطلق على اولئك الذين يكتبون او يسجلون اسفار الشريعة واخرى اطلق على مفسريها وشارحيها . وقد ارتفعت اهمية الكتبة في آخر قرنين قبل الميلاد فاصبحوا معلمي الشريعة ومفسريها واصبحوا خطباء في المجمع وقضاة . وكان ينتخب منهم اعضاء المجلس الديني الاكبر وهو المجلس التشريعي اليهودي . وتحترمهم عامة الناس وتطبق الاحكام القضائية التي يصدرونها . والمعتقد ان المعارضة الشديدة التي لقيها المسيحيون في اوائل عهد المسيحية عند اليهود كان سببها القرارات التي اصدرها هؤلاء بحقهم . كان يسوع يأخذ عليهم بصورة خاصة صرامتهم وتشددهم وتمسكهم باللفظ دون المعنى .

٢ - سليمان الملك والنبي اليهودي (ت ٩٣٣ ق.م.) الذي يعزى اليه سفر «الامثال» و«نشيد الانشاد والجامعة» ، وينفى الباحثون المتأخرون انه كتبها او كتب اكثرها . ويونان النبي هو صاحب قصة الحوت .

انتقد كما انتقد بنيان (١) لانتخاذه الرواية مثابة في تعليمه الامثال والحكم ، يرو عمله هذا بالحجة القائلة «ان الفن هو السبيل الوحيدة التي يمكن ان يتعلم بها الناس» . فالمسيح بمختصر القول هو ممن يجب علينا تسميته بالفنان وبالبوهيمي في أسلوب حياته .

لم يكن يسوع داعية الى دين

نقطة ذات اهمية كبيرة عملية في يومنا هذا ، وهي ان المسيح كان ينفي بصراحة الفكرة القائلة ان اشكالا من الديانات ، ما ان ترسخ جذورها ، حتى يقدو من السهل قلعها ورفعها عن تربتها واعادة غرسها مع ازهار ايمان آخر غريب عنها «اذا حاولتم قلع الزوان فستقلعون معه القمح ايضا» على ان مشاريسع بعثات التبشير والهداية عندنا ، تعمل ضد هذه النصيحة تماما . والنتائج تظهر صواب نظريته القائلة بانك اذا هديت شخصا ربي على دين آخر فانك تفسد اخلاقه حتما . وقد عمل يسوع نفسه وفق هذه القاعدة ، فلم يطلب من تلاميذه التحول عن اليهودية الى المسيحية . والى يومنا هذا ، يعتبر المسيحي يهوديا دخل حظيرة (الديانة) بالعمودية بدلا من الختان ، وقبل بيسوع مسيحا ، واعتبر تعاليمه أوثق وأقرب من تعاليم موسى الى الاتباع . على ان الكهنة اليهود الذين عمدوا الى انقاذ الديانة اليهودية من طغيان

١ - John Bunyan (١٦٢٢ - ١٦٨٨) كاتب انكليزي صوفي النزعة اشتهر كتابه The Pilgrim's Progress (صدره: ١٦٧٨) وهو كتاب ديني رمزي يصف رحلة الانسان الخاطيء الى بر الغفران والطهارة من الذنوب.

المسيحية فعلا بأسفار جديدة وفرائض جديدة ، وأضافوا إلى قائمة أسماء المعونين اسم ايشوع (١) النفل الساحر الذي أدت به أعماله الاحتيالية الهزلية إلى نهاية سيئة مثل بنش (٢) أو تيل يولنشبيغل (٣) فكان استنباطا وتخريجا كلفهم ثمنا غاليليا عندما تفوقت عليهم المسيحية سياسيا . واليهودي كما يعرفه يسوع اليهودي لا تخطر بباله مثل هذه الأمور وبإمكانه أن يصير تابعا له دون أن تخل تبعيته هذه بولائه ليهوديته .

تعاليم يسوع

هذا ما يعن لنا ذكره حول طباعه وحياته الخاصة . على أن حياة الواعظ الجماهيري فيه ، باعدت الشقة كثيرا بينه وبين يوحنا المعمدان . فهو في الواقع لم يول اهتماما خاصا بالمعمودية وبالندور وواصل وعظه وحثه على مكارم الاخلاق دولما هوادة . فدافع عن الشيوعية ، وحرص على توسيع دائرة الاسرة الخاصة وانفتاحها وتفسيح صلاتها الضيقة الملمومة بالتحول إلى دائرة الاسرة البشرية العظمى التي تخضع لآبوة الله . وأوصى بنسب الاحقاد ، وطرح العقاب جانبا وحض على مقابلة الشر بالخير ، بدلا

١ - ويقصد به (المسيح ابن مريم) طبقا فهو ييشوع وايشو بالامرايية والارامية على التوالي .
٢ - Punch : بطل المسرحية الشائعة المعروفة باسم (Punch and Judy) .

٣ - Til Eulenspiegel شخصية هزلية في سلسلة من الحكايات الألمانية القديمة طبعت في العام ١٥١٩ .

من مجازاته بالشر العدواني، ودعا الى المفهوم العضوي الاجتماعي، وهو انك لا تعدّ في مجتمعك فردا مستقلا وانما عضوا فاعلا، كذلك جارك، وانتما اعضاء احدكما للآخر كأنكما اصبعان فسي اليد، والنتيجة البديهية من هذا، هي انك ان لم تحب جارك كما تحب نفسك وان لم يحبك هو ايضا مثل حبك له فسيلحق بكلاكما الاذى. لقد شرح يسوع كل هذا ببيان ساحر ممتاز ومتسع سامعيه بالامثال الطريفة المقتنة، ولم يكن عنده (كنيست) او (جماعة من المؤمنين خاصة) وانما كان يتنقل من موضع الى آخر مع اثني عشر استلمعاهم وانتزعهم من اعمالهم اثناء مروره بهم - فتركوا اشغالهم وتبعوه.

المعجزات

تميز بقوى غير اعتيادية، استطاع بها عمل المعجزات. وكان يخجل من وجود هذه القوى فيه. ولكن بما انه في منتهى اللطف ورهافة الحس فهو لا يستطيع ان يرفض تجربتها في شففاء المرضى المبتلين عندما يرفعون اليه اكف الضراعة فيشفئهم. ولما يرى الجموع الكثيفة جائعة ولما يخيم الرعب على تلاميذه من جراء هبوب العاصفة في البحيرات لا يسعه الا معالجة الامر بقسواه الخارقة وهو لا يطلب مقابلا وانما يرجو الناس ان لا يذكروا شيئا عن قواه الخارقة هذه او ينشروا خبرها. وثم سببسان واضحان لكرهه اشتها امره بصنع المعجزات: احدهما نفورة طبيعية تجدها في كل اولئك الذين يملكون مثلما ملك يسوع مع امتلاكهم في الوقت نفسه عملا آخر في الحياة اهم من ممارسة تلك المعجزات، ثلثا ينظر اليهم كما ينظر الى المشعوذين والدجالين بالدرجة الاولى. هذا فضلا عن تضايقه من طلبهم اليه تجريسة

هذه القوى ارضاء لحب استطلاع فيهم ليس غير . واما السبب الآخر لهذا الكره فهو ان وجهة نظره في تأثير المعجزات على رسالته هي بالضبط وجهة نظر روسو من بعده . كان يدرك فعلا انه سيفقد ثقتهم ويحول اهتمامهم عن عقيدة كاملة الابعاد ، بخلقه مسألة جديدة غير ذات علاقة فيما بين تلاميذه وبين خصومه .

ربما لم يتدارس قرائي كتاب روسو الموسوم (رسائل كتبت من الجبل) ، وهو الكتاب الذي يمكن اعتباره مرجعا في مسائل المعجزات بوصفها «اوراق اعتماد» لصحة الرسالة الالهية ! يوضح روسو كما تكهن يسوع - ان المعجزات هي العقبة الكاداء الرئيسية التي تحول دون اقتبال الدين المسيحي كدين لان استحالة التصديق بها (لو لم يتعذر تصديقها ما عادت معجزات !) نجعل الناس يشكون في أصل الحكاية وفي صحتها . تحدث المعجزات فعلا ولا يكون في حدوثها ريب ، الا ان الشك يأتي الى موضوع العقيدة المقترنة بها . وفي هذا الصدد يقول روسو : « تخلص من المعجزات ، وسيقع العالم اجمع تحت قدمي يسوع » وهو يشير الى تلك المعجزات التي تتقدم بوصفها دليلا على الالهية فتفشل في اقناع العقول وتجعل من تلك العقيدة مهزلة . وهو يقول بحق : «لا غرابة في ان تجعل الاعرج يمشي بصورة اعتيادية فهناك آلاف من العرج تم لهم الشفاء وراحوا يمشون على اقدامهم دون اية معجزة . لكن جئني برجل ذي ساق واحدة ، واجعل الساق الاخرى تنمو له امام عيني في الحال ، وسأصاب بالدهشة حقا . اما مجرد شفاء اسقام وأوجاع ، كثيرا ما تحقق لها الشفاء من قبل ، فهو مما لا قيمة له مطلقا اذا اعتمد دليلا على شيء آخر غير الرغبة في المعونة او اتخذ برهانا على المقدرة الشفائية» .

وعند متى ان يسوع يتفق تماما مع روسو ، وانه يشعر بالحظ شعورا قويا بحيث انه يشعر بمنتهى القرف والانزعاج عندما يأتيه اناس لا هم مرضى ولا هم في محنة يطلبون منسه

ممارسة قواه الخارقة كدليل على رسالته . فيرفض وهو ساخط
سخطا قد يعتبرونه غير معقول صدوره منه وهم الذين بجهلون
وجهة نظر روسو . انها لتجربة مرة لهم ان ينعتهم صانع المعجزات
«بالجيل الشرير القاسق» لمجرد طلبهم منه ان يعرض لهم نموذجا
لقواه الخارقة . والشيء بالشيء يذكر ان النبي محمدا ثارت
تأثيرته وخرج عن طوره ايضا عندما طلب الناس منه صنع معجزات
فانكر صراحة وجود اية قوى خارقة فيه ، بينما يتضح من قصة
منى ان يسوع كان لسوء حظه كما ظن هذا الانجيلي يتمتع ببعض
القوى الشفائية . كذلك واضح بان ممارسة قوى كهذه ستشير
كثيرا من الاقاويل والحكايات عن مآثر السحر التي ستعرض
بظلمها الى الاتهام بوصفه دجالا يمارس شعوذاته بين اناس كان
رايهم الطيب ذا اثر عظيم في النشاط الذي بدأ به رسالته . الا
اشد آثار القلق والحيرة التي تخلفها المعجزات هي انها لا تلائم
الفرض الجوهري الذي وجدت لخدمته . فتعاليم يسوع (وهي
الفرض الجوهري) لا علاقة لها بالمعجزات . واذا كانت رسالته
لمجرد اظهاره طريقة جديدة لاعادة البصر الى العين ، فان معجزة
شفاء الاكمة تكون متفقة مع الفرض تماما . اما قوله «احبوا
اعداءكم ، ولاقناعكم بذلك فسأبشر الان بشفاء هذا السيد من
مرض نزول الماء على عينه» فيكون اقتراحا جنونيا بالنسبة الى
رجل ذكي كيسوع ولو امكن اليوم البرهان على انه لم تحصل قط
اية اعجوبة من اعاجيب يسوع فان هذا البرهان لن يبطل قسولا
واحدا من اقواله التهذيبيية او تعاليمه ، بالعكس من هذا لو امكن
البرهنة على ان المعجزات المدوثة في الاناجيل ليست وحدها هي
التي وقعت فعلا وانما هناك الف اخرى منها تفوقها امجازا الف
مرة فلن يضيف ذلك من الثقل والاهمية الى عقيدته ومع هذا ،
فان الحيوية الذهنية التي كانت ترى في الملحدين واللاهوتيين قد
تدهورت على مدى اجيال من النقاش المستمر ول المعجزات

بالافتراض ان المسيحية ستعرض الى خطر ماحق بسبب الجدل حول حكايات متى اهي زائفة ؟ ام حقيقية ؟ ومما يستفاد من متى نفسه ان يسوع كان بلا ريب يعرف ذلك معرفة تامة فاللجاجة والالاحاح كانا يلاحقانه في طلب المعجزات انى توجهه وسار ، وكلما اثارت شريعته الحيرة في النفوس .

الا فلنضرب الآن عن المعجزات صفحا . ولنعد بعدها لنجد ان متى يخبرنا بأن يسوع صرح ان تعاليمه ستكون هدفا لمهاجمة الدين السائد ونظام الحكم القائم ، وان الجماهير وسواد الشعب هو «ملح الارض» و«نور العالم» وان تلاميذه في علاقاتهم مع المنظمات السياسية والدينية (الكنيسية) سيكونون كالغنم بين الذئاب (١) .

متى ينسب التعصب ليسوع

ان متى كمعظم كتّاب السير ، يجاهد في جعل آراء بطله وأمزجته ونزعاته نسخة منه متطابقة . ومع انه يصصف يسوع بالتسامح الى درجة اهماله الحذر ، فانه يضع بينه وبين الوثنيين حاجزا ، ويقدمه لقرائه يهوديا متعصبا يرى رسالته مقصورة على «خروف بيت اسرائيل الضال» . وعندما طالبت المرأة الكنعانية من يسوع ان يشفي ابنها ، رفض ان يكلمها في مبدأ الامر ، ثم زجرها زجرا فيه فظاظة وغلاظة اذ قال لها «لا يحسن ان يؤخذ خبز البين فيلقى الى جراء الكلاب» فقالت له «رحمك يا سيد» حتى جراء الكلاب تأكل من الفتات الذي ينساقط عن موائد

اصحابها» فأذابت بقولها هذا قلب اليهودي فيه وجعلت المسيح مسيحيا ، واجابها «ما اعظم ايمانك ايها المرأة فليكن لك ما تريد» . وهذه القصة على كل ، هي واحدة من اشد القصص وقعا وتأثيرا على النفس في انجيل متى ، وربما كان ذلك متأثرا من ان المرأة وبخت النبي بمسها اروع سحجية من سجاياء . انها بالتأكيد بعيدة عن طبعه ، غريب صدورها منه . لكن ، لما كانت آثام الرجال الصالحين هي دائما بعيدة عن طباعهم فليس سليما ان نرفض القصة بوصفها منحولة موضوعة دعما لاصرار متشى وتاكيد بآن يسوع لم يكن له اية علاقة بالملحدن على اي حال ، فتلك هي القصة قائمة ولم تكن المناسبة الوحيدة التي يهتبلها متى ليظهر يسوع مع سحر وعظه وجمال تعاليمه، شخصا بمنتهى المظاظاة في علاقاته الشخصية .

التحول العظيم

الى هذا الحد كان تاريخ حياة يسوع تاريخ انسان سليم العقل جذاب الخصال . دعك من مواهبه وملكاتسه كخطيب شعبي ، وشاف للاسقام ، ونبي . على ان تغييرا هاما سرعان ما يحصل له . ففي يوم ما ، بعد ان خيب تلاميذه ظنه فيهم لسوء فهمهم رسالته ، اذ دبت فيهم الحيرة واخذوا يتساءلون : اهو احد الانبياء القدماء بُعث ثانية ؟ واذا كان الامر كذلك فأي نوع من الانبياء هو ؟ وعندها نهض بطرس بغنه ليحل المشكلة اذ هتسف يقول «انك انت المسيح ابن الله الحي !» فسرّ يسوع بهذا سرورا لا حد له واهتاجت عواطفه فصرخ قائلا ان الله قد اوصى لبطرس بما قاله ايعاء مباشرا . ثم جعل اسم بطرس تورية بأن اعلنه

(صخرة) (١) اي مؤسسا لكنيستته وقابلا بمصير كمصير الآلهة حينما اعلن انه هو نفسه سيقتل عندما يدخل اورشليم . اذ لو كان هو المسيح حقا فان الجزء الضروري من مصيره الاسطوري يقضي ان يموت ميتة عنيفة غير طبيعية . ولما بدا على بطرس عدم الفهم لكلامه بدا بطرس يعاتبه منفردا لما بدا منه من كآبة مبعثها الخوف والجبن ، فيلتفت اليه وينتهره بحدة قائلا «أبعد عني ايها الشيطان .» (٢) .

ويغدو يسوع منشغل البال بايمانه بالوحيته ويتكلم عن ذلك لتلاميذه بلا انقطاع مع انه كان يمنعهم عن التنويه بها للآخرين . فيبدأون خصاما فيما بينهم حول المراكز التي سيشغلونها في السماء عندما يأتي ملكوته ، فيزجرهم زجرا شديدا ويكرر وصيته بأن الرفعة والمنصب يعني الخدمة لا التسلط الا انه هو بالذات (وكان بطبعه متعاليا نوعا ما) يصبح دكتاتوري الزعة متعجرفا ، بل يبلغ حد الشراسة احيانا ولا يجيب منتقديه الا وفي اجابته امثولة جارحة ويبلغ به الامر ان يلعن شجرة تين خيبت امله عندما قصدها ليحني ثمرها . ويتخذ كل تقاليد الآلهة الفولكلورية ويعلن مثل جون بارلي كورس ! بأنه سيقتل شر قتلة ويدفن ، على انه سيقوم من القبر ويعود الى الحياة . ويعزو لنفسه تلك التقاليد العبلية المجهولة الاصل والمنشأ: مباركة الخبز والخمر ومناولتهما لتلاميذه مشخفوعة بعبارة «خذوا فكلوا هذا هو جسدي وهذا هو دمي» ويسهي من تعاليمه نفسها فبهدد بالنار الازلية والعقاب الاندي ويعلن فضلا عن قيامته البارلي كورنية ! بأنه سيأتي الى العالم ثانية يحف به المجد ويقيم مملكة على الارض . ويخشى بأن

١ - ورد تفصيلها في الفصل ١٦ من انجيل متى .

٢ - (ف : ١٦ ، متى) .

يؤدي هذا الى ظهور ادعاء مزيفين يزعمون انهم هو ويقولون بصراحة ودأب، ان مجيئه مقدر محتوم لا يجادل فيه أحد (١) ومهما صنع هؤلاء الادعاء من العجائب لاجتذاب الناس . وانه سيخر كالنجم الثاقب من السماء بينما تنفخ الملائكة بالابواق اعلانا لمجيئه . ويصرح كذلك بأن ذلك سيحصل في حياة اشخاص هم الآن في قيد الحياة .

اورشليم والقربان السري

في هذه الحالة الفكرية الجديدة يدخل يسوع اورشليم اخيرا وسط فضول وتطلع شعبي عظيم فيطرد الصرافين وباعة الاضاحي من الهيكل محدنا ضجة وصخب . ويرفض ان يتمتع نفسه بجمال بناء الهيكل وروعة زاعماء انه سينقوض ولن يبقى فيه حجر على حجر ، ويروح يشتم الكهنة والوجهاء ويسبهم سبا مقلدا . ثم يعتقل ليلا في احد البساتين اجتنابا لفئنة عامة فلا يبدي مقاومة، لانه مقتنع بأن هذا هو جزء من مصيره بوصفه إلها . اي انه مكنوب بأنه يقتل لينبعث حيا . ويحاول احد تلاميذه (٢) اظهار مقاومة فيقطع بسيفه اذن احد الذين خرجوا لاعتقاله فينتهره يسوع . الا انه لا يحاول شفاء الجرح ويصرح قائلا انه لو رغب في المقاومة فليس أسهل عليه من ان يدعو لنصرتيه اثني عشر مليون ملاك ! ويؤخذ الى رئيس الكهنة ، فيسلمه هذا بدوره الى الحاكم الروماني الذي يحيره رفضه الصامت . وابتاؤه الدفاع عن

١ - ف : ٢٤ ، و ف : ٢١ .

٢ - هو سمعان بطرس راس الرسل .

نفسه بأي شكل من الاسكال . ولم يقبل دحض متهمة ومن شهد عليه ؛ ذلك لان بيلاطس كان خالي الذهن طبعاً من ان السجين يعبر نفسه بأنه يجتاز اجراءات مفررة مرسومة لا بد منها . من عذاب وموت ودفن باعتبارها اجراءات تمهيدية للبعث (القيامة) . وظل امام رئيس الكهنة ايضاً يلزم الصمت . لكنه لم يتردد في الاجابة عن سؤال الكاهن الاكبر «هل انت المسيح ابن الله» بالإيجاب ويقول في معرض رده هذا انهم جميعاً سيرون «ابن الانسان» جالساً عن يمين الآب ، آتياً فوق سحابة من السماء . وهو يحافظ على مسلكه هذا بشجاعة هائلة تبعث الرعدة فسي البدن . عندما يجلدونه ويسخرون منه ويعذبونه ثم يصلبونه بين لصين . الا ان معاناته الطويلة لسكرات الموت من فرط العطش والآلام تغل من مريمته اخيراً ، فيموت وهو يهتف «إلهي لمساذا تركتني ؟ » .

ليس هذا الرجل وانما برأبا

في هذه الاثناء يتبذره الشعب والكهنة نذا حازماً قاطعاً فينمطف عليه بيلاطس ولعجزه عن فهم جريمته بالضبط (ان التجديف الذي ارفع رئيس الكهنة لم يكن له تأثير على هسدا الروماني) يحاول انقاذه بتذكير الشعب بأن العادة جرت ان يكون لهم الحق في ان يطلبوا اطلاق سجين في تلك المناسبة من العام ، ويقترح عليهم ان يطلق لهم يسوع لكنهم يصرون على ان يطلق لهم سجيناً آخر يدعى برأبا بدلاً منه ، وان يصدر أمره بصلبه . ولا يتقدم متى بأي تفسير للشعبية التي كان يتمتع بها السجين برأبا وانما يصفه بأنه «سجين عظيم المكانة» ولا اكثر . وفي الاناجيل التالية تتضح هويته بشكل لا يعود مصدراً لحيرة فيذكر ان جريمته

هي التآمر على الدولة والثورة ، وأنه كان من مستبذي استخدام القوة المجردة المادية . وأنه رجل بطش . وهكذا بدأ اختيار برابا وكأنه تفضيل شعبي للقوة المجاهدة الباطشة على التبشير بالرحمة ، وكراهة العنف .

القيامة

ثم يحدثنا متى كيف أن ملاكا نزل بعد ثلاثة ايام وفتح باب قبر عائلة يوسف الاريماثي الغني فقام يسوع من جدته واستوى حيا ، وخرج من اورشليم ، عائدا الى الجليل واستأنف وعظه مع تلاميذه مؤكدا لهم بأنه سيكون معهم الى انقضاء الدهر . وفي هذه النقطة تنقطع القصة فجأة . . على انها ستبقى ابدا دون نهاية !

تاريخ حكاية متى

يمكن التوصل الى تاريخ كتابة الانجيل من غير معونة الباحثين من الوعد الذي قطعه يسوع بعودته ثانية ممجدا اثناء حياة بعض سامعيه . من المؤكد انه كتب اثناء حياة بعض معاصري يسوع اعني حين كان ممكنا ان يتحقق وعده بالعودة الى العالم ثانية . مات آخر شخص كان حيا وقت قول يسوع « لن يزول هذا الجيل الراهن حتى يرى ابن الانسان يأتي في ملكوته » وبذلك قضى على آخر احتمال بالعودة الثانية التي وعد بها الناس وايد رأي بيلاطس واليهود الذين لم يصدقوه . كتب متى انجيله وهو مؤمن بهذا المجيء الثاني ، ولذلك لم يكمل قصته وترك انجيله ناقصا ليختمه

١٠ المنتظر . اذن فلا بد وانه كتبته خلال حفبة من العنبر ،
خلالها عملية الصلب . كذلك لا بد وان متى كان يعتقد بأن
الكتب ستكون في مستقبل الايام احدى متع ملكسون
وانت والارض !

ب الطبقي ليسوع متى

بتلك الاجاء خاص في متى يجب التنبه به . انه بدأ قصته
، يوحى للقارىء ان يسوع ينتمي الى اعلى طبقة في البلاد في
يشير فيما بعد ان يسوع عندما حاول ان يخطب فسي
لـ رأسه ، لم يلق نجاحا وازدر عنه الناس قائلين «اليس هو
لنحجار ؟» (١) على ان سلوك يسوع كان سلوك ارسطراطي
، او هو على اقل تقدير سلوك ابن برجوازي عني ، لا سلوك
من متأخر العفلية ، في هذا المجال . كذلك علينا ان نحذر من
يأن يوسف لم يكن غير نجار بروليتاري عصري يعمل باجور
عيفة . بل ينبغي لنا ان نتصوره صانعا حاذقا منحدرًا من نسل
. فاذا قدرنا ان يكون يوحنا المعمدان اشبه شيء بكايسر
ي (٢) ، فان يسوع متى هو من طبقة رسكن وموريس (٣) .

— يطابق متى مرقس في هذه الرواية تقريبا : (ف ١٣ متى ٠ ف ٦ مرقس) .
— James Keir Hardie (١٨٥٦ — ١٩١٥) عامل في منجم للفحم
في اسكتلندي . ذو نزعة اشتراكية اشغل في الحبل السياسي وانتخب
في البرلمان الانكليزي .

John Ruskin (١٨١٩ — ١٩٠٠) احد الكتاب الاقتصاديين والسياسيين
— هو وليام موريس William Morris (١٨٣٤ — ١٨٩٦) هو من مباحرة

كان هذا الخلق المتعالي شديد الظهور فيه بحيث انه لو لم يكن لدينا من الوثائق عنه غير انجيل متى فلن نشعر نحوه بأقل مما نشعر به الآن ولتحتّم علينا ان نكون أقل اشمئزازا بكثير من قولنا الحالي : «دوئك رجلا كان صاحبا متزنا حتى خلع عليه بطرس لقب المسيح فأصبح بعدها مبتليا بداء البرسام (١) » ولترتب علينا ان نتسعر بأن واهمنه هذه هي مما هو شائع جدا بين المجانين ، وان جنونا كهذا لا يتنافى مطلقا مع وجود الدهاء والعمق واصالة التفكير التي أظهرها يسوع في القدس بعد ان استحوذ عليه وهمه تماما واحتل جوانب عقله . اننا والحالة هذه ، لنستنكر ونستهول انزال عقوبة الجلد به وصب الاهانات عليه وصلبه ، مثلما كنا نستفظع معاملة رسكن بهذا الشكل عندما ادركه الجنون هو الآخر بدلا من العناية به ويعالج كما يعنى بالمرضى ويعالجون ، ولبقينا في حيرة من امرنا ، لا ندرك بوضوح ، الاهمية الخاصة التي تنطوي عليه تسميته (بإبن الله وابن الانسان) ولوجب علينا ان نلاحظ بأنه اشتراكى النزعة ، وانه لشديد الرعاية لحرمة ما نسميه بالقانون والنظام بوصفهما آئين لسلب الفقراء وتجريدهم من مقتناتهم ، تحت مزاعم شرعية . وبأنه يرى روابط القربى والجماعة شراكا للروح تفق والمثل القائل «كلما زدت قربا من الكنيسة زدت بعدا عن الله» وانه رأى بوضوح تام ان سادة المجتمع يجب ان يكونوا خدام المجتمع لا مضطهديه ولا طفيليه . وانه مع عدم اشارته لنا بقتال اعدائنا ، فقد اوصانا بأن علينا ان نحبههم وانذرنا

الاكتليل . جمع الشعر والفن والهندسة والزخرف ، وكان معروفا بنزعتيه الاشتراكية ، وكلا الرجلين ينتميان الى الطبقة العليا .
 ١ - monomoniac : وهو جنون الفكرة الواحدة التي تسلط على التفكير وتتحكم في كل تصرفات الانسان .

بان من «أخذ بالسيف ، فبالسيف يؤخذ» وكل هذا يضع منه امام
اعيننا قوة عظيمة ، قوته في النظر من خلال اوهام مبتذلة ومقدرته
على الوصول الى قيم اخلاقية اعلى من اية قيسم تنبت في اي
مجتمع متمدن . الا انها تضع يسوع فوق كوتفوشيوس او
افلاطون دعك من فلاسفة واخلاقين آخرين احدث من هذين
واقرب منهما عهدا .

الفصل الثالث

موقس

التلاميذ ، النساء ، الصعود

الا فلنر ، هل بوسعنا استخلاص شيء من موقس (١) أكثر

١ - لم يكن هذا الانجيلي من الرسل الاثني عشر بل على حد قول بعضهم من التلاميذ الاثني عشر والسبعين الذين اوسلهم يسوع، اثنى اثنين . وزم آخرون انه الشاب الذي تبعه لما اخذه اليهود من بستان الزيتون وحجته ان موقس انفرد برواية ما جرى لذلك الشاب كانه يريد الاشارة لنفسه «وتبعه شاب ليس عليه غير ازار فأمكوه فتخلص من الازار وهرب عريانا (ق ١٤) » . كان موقس مع بولس في رحلته الاولى (٤٤ م) الى قبرص وآسيا الصغرى ورجل ثانية مع نسيه برنابا ما بين السنة ٥٠ و٥٢ م . وفي ٦٢ م نراه يصحب بطرس ويعاونه . وتجمع

مما استخلصناه ٤ والشئ بالشئ يذكر ان انجيل مرقس يفترض بأنه اسبق تأليفا من انجيل متى . وهو مقتضب موجز لا تلبث ان نرى انه لا يضيف شيئا الى ما اورده متى الا باختتامه القصة بحادث صعود المسيح الى السماء ، وبخبر مؤداه ان عدة نساء صاحبن يسوع الى اورشليم ، ومنهن مريم المجدلية التي اخرج منها يسوع سبعة شياطين . ومرقس من الجهة الاخرى لا يذكر شيئا عن ميلاده ولا يتصدى لسيرته الا عند اعتماده وهو رجل بالغ ، على يد يوحنا المعمدان . والظاهر منه انه يعتبر يسوع مواطنا ناصريا مثل زميله يوحنا الانجيلي ، وليس من سكان بيت لحم كما يذكر متى ولوقا . وبيت لحم هي مدينة داود التي يقول متى ولوقا انها مسقط راس يسوع . ويصف مرقس عقيدة يوحنا بأنها «معمودية التوبة لفقران الخطايا» . اعني انها شكل من اشكال المذهب الخلاصي . ويحدثنا فضلا عن ذلك ان يسوع دخل الكنيس وعلم فيه لا كما يعلم الكتبة ، بل كشخص ذي سلطان (١) اعني كما نستدل منه ، انه علم مبادئه الخاصة بوصفه اخلاقيا ذا مذهب اصل ، لا خطيبا مرددا اقوال الكتب . وهو يصف معجزة يسوع بوصوله القارب ماشيا فوق صفحة مياه البحر ولا يذكر شيئا عن محاولة بطرس تقليده في سيره على الماء . ويرى مرقس

الروايات انه ترك روما بعد شهادة بطرس وفي ٦٨ م استشهد هو نفسه في الاسكندرية . يقال ان انجيله مأخوذ عن ذكريان بطرس وبولس ولهذا يعدونه اشبه بمذكرات لهما ، وقيل انه دوّن ما قبل العام ٦٤ م في روما بناء على طلب مسيحييها . وليس هناك دليل يشير الى ان انجيل مرقس كتب قبل انجيل متى كما يقول شو في الاصل .

١ - اي ذو سلطة تشريعية لا يقتصر في تعليمه على التفسير والتشروح كما يفعل الكتبة وانما يسن ويسبط القواعد من عنده .

«الأمور بشكل أدق مما يراها متى ويضع لمسات وإضافات من التفاصيل التي تعرض الأحداث أمام القارئ بوضوح فيقول مثلاً: بينما كان يسوع يسير فوق الأمواج «كاد يجاوزهم فلما رآوه كذلك صرخوا لأنهم ظنوه خيالا» . ويبدو أنه شعر بأن معاملة يسوع للمرأة الكنعانية تتطلب بعض الاعتذار لذلك جعلها «امراة وثنية ترجع الى اصل سوري فينيقي» وهو مبرر لاستخدام كل فظاظه معها في رأي مرقس . ويقدم لنا والد الصبي الذي كان ابنه مصابا بداء الصرع فشفاه ، ليضع على شفثيه القول الآتي: «آمنت فشدد ايماني الضعيف» بوصفه واحدا من المرتابين في رسالته . ويروي قصة الارملة التي لا يذكرها متى . ويوضح أن برابا كان ملقى في السجن مصفداً بالاعلال مع أولئك «الثائرين» الرجال الذين اجترموا القتل في توره . واما يوسف الرامي الذي قسام بدفن يسوع في ضريح الاسرة الخاص والذي يصفه متى بأنه «تلميذ» فيقول عنه مرقس انه «كان من الذين ينتظرون ملكوت الله» . مما يوحي للمرء انه كان «باحثا مستقلا» . ويستأهل مرقس الشكر لانه لا ينوه بشيء من النبوءات القديمة وهو بذلك يكشف عن عدم ايمانه «بالوقت والاجل المضروب» بل يجتنب التورط في قوله ان يسوع كان يجتاز فحفا مسبقا على ضوء النبوءات التي وردت في الكتب تلك النبوءات المنتظمة مثل انتظام الساعة ، بدلا من مجرد حياة امتيادية مثل حياة سائر البشر . اخيرا يذكر ان يسوع ذكر بعد قيامته بأن «من آمن واعتمد يخلص» ومن لم يؤمن يقضى عليه ويلعن» لكن يصعب علينا مفهوم حالة «القضاء والعنة» اهي حالة خطأ ؟ ان علماء المخطوطات القديمة يقولون بأن هذه العبارة مدسوسة اقحمها كاتب متأخر . وعلى العموم ، يتروك مرقس القارئ المصري ، حيث تركه متى تماما .

الفصل الرابع

لوقا

لوقا الاديب والغنان

عندما تأتي الى لوقا فاننا تأتي الى متحدث ومنتسئ متأخر ،
الى شخص يملك في مجال فنه ، موهبة كتابية ، تفوق مواهب
الآخرين قوة . وانك لتحس قبل ان تنتهي من قراءة عشرين سطرا
منه بانك اجتزت اسلوب كتابة المؤرخ الذي يدون الوقائع الهامة
فحسب ، وولجت حرم الفن الذي يروي حكاية . تراه من
البدء ينظم اروع قصيدة في التوراة واعظمها سحرا تلك هي
قصة مريم التي يضطرها اردحام الفندق الى ان تلوذ بالاسطبل
لتنضع ابنها في المدود . وقصة الرعاة الساكنين في الحقول
لحراسة قطعانهم ليلا ، كيف ظهر لهم (ملاك الرب) وأضاء مجده
لهم ، وانضمام جموع غفيره من الارواح السماوية فجأة حيث

يتوجه الرواة الى الاسطبل ليتخذوا مكان الملوك في حكاية متى .
هذه القصة استولت على خيالنا واسرت حواسنا اسرا تاما بحيث
افترض معظمنا انها موجودة في كل الاناجيل وليست قاصرة على
انجيل لوقا . انها لقصة فريدة لم يخطر منها شيء في بسال
الآخرين .

سحر قصة لوقا

يجلو لوقا سحر الرواية العاطفية في كل حكاية من حكاياته .
« فالبشارة » في انجيل متى تأتي يوسف بمثابة انذار له بالا يطلق
زوجته بسبب سوء السلوك ليس الا . اما في لوقا فان البشارة
تأتي مريم بالذات . وباسهاب وتفصيل كثيرين . مع شعور بفرح
عروس (الروح القدس) وبفطرة الام . ويسوع في حكاية لوقا هو
مهذب رقيق الحاشية حتى انك تكاد لا تميزه . والتلميذ يوحنا
المعمدان الصارم الذي لا تين قناته ولا يعصم فريسيا او احدا
من الكتبة ، دون عبارة مهينة ، يغدو انسانا لين العريكة اجتماعيا
حتى ليكاد يبدو حضريا . وهكذا يصبح اليهودي المتعصب
متسامحا مواليا للكفرة الانجاس . وينطرد عن (مجمع) بلده طردا
عندما يذكر المصلين بأن الانبياء فضلوا الكفرة على اليهود احيانا .
وفي الواقع انهم حققوا عليه الى الحد الذي ما كانوا يرددون في
قلده من اعلی ما هو أشبه بالصخرة التي يستخدمونها لتنفيذ
احكام الموت . الا انه يشق طريقه من بينهم وينجو ، وتلك هي
الاشارة الوحيدة الى اعتماده المقاومة بالسلاح في الاناجيل كلها .
ولا تجد كلمة واحدة عن المرأة السورية الفينيقية . وفي النهاية
تراه يرتفع بهدوء ويقهر آلامه ويرتجل كلمة وهو في طريقه الى
ساحة الموت برياطة جاش لا يشوبها اي اضطراب ، ولا يصيبه

اليأس وهو مسمر على الصليب ، ويموت بكل جلال ووقار مستودعا الله روحه بعد ان طلب المغفرة لقائله متعللا بأنهم « لا يدرون ما يفعلون » وبحسب ما جاء في متى ان شتسم اللصين اللذين صلبا معه كان جزء من فظاعة ميته . اما عند لوقا فان واحدا منهما فقط شتمه ، وأما الثاني فقد راح يؤنب صاحبه ، ويرجو من يسوع ان « يذكره في ملكوته » ، فيجيبه يسوع قائلا: « اليوم تكون معي في الفردوس » مثبتا بأنه سيفضي ايام وجوده في عالم الاموات هناك . وبمخنصر القول استخدمت في هذا الانجيل الوسائل جميعها للنخلص من الغلاظة والفسوة التي حفلت بها رواية متى ، وتم ارخاء العنان للتوتر العاطفي بحكايات استطرادية مؤنرة ، وبإظهار يسوع روحا ارفع من آلام البشر واسمى . ان يسوع لوقا هو اليسوع الذي يأسر قلوبنا اسرا !

الروائية الباريسية الرومانسية

ان اجتناب لوقا الرومانسي كل ما يبعث على الحزن والاسى ، ورقة احساسه ورهافته تتجلى في روايته قصة المرأة صاحبة الطيب . ان متى ومرقس يفيدان بأن الحادثة وقعت في بيت شمعون الابرس فاعترض يسوع على عملها هذا ، اذ وجد فيه تبديدا للمال . اما في رواية لوقا فالابرس ، يغدو فريسيا غنيا ، والمرأة تصبح من قبيل (غادة الكاميليا) (١) ، وفي الواقعة كلها لا يرد ذكر شيء عن الفقراء والمال ، والمرأة هنا تقوم عرضا لا تقصدا

١ - عنوان رواية مشهورة لالكساندر دوماس الابن (١٨٢٤ - ١٨٩٥) تسروي مأساة ماهرة باريسية تالفة احبته باخلاص شابا ، ثم آفرت التضحية بحبها لاجله .

بفلسل قدمي يسوع بدموعها وتجففهما بشعرها ، فيللم لانه ترك امرأة خاطئة تلمسه . والقصة تكاد تكون اقتباسا عن متي البعيد كل البعد عن خيال المسرح الباريسي . هناك محاولة واضحة لاسترعاء الاهتمام الانثوي بالامر . واللمع الخفيفة الهادية التي قدمها مرقص ، تناولها لوقا وأجرى فيها يد التحوير والتطوير ، وبز هذا الانجيلي اقرانه في الحديث الطلي عن ام يسوع وعن مشاعرهما وأسهب في قصة النسوة اللاتي تتلمذن على يسوع وهو ما لم يذكره مرقس الا لتعليل وجودهن عند قبره . فلوفا يقدمهن قبل هذه المرحلة ، ويسمي لسا بعضهن ، وهكذا ترانا نتعرف بحنة امرأة قوزي خازن هيرودس وسوسان . كذلك تجد حكاية بيبي استطرادية طريفة بين مريم ومريتا . وهناك ايضا مثل الابن السفيفه (الابن الضال) ذلك المثل الجذاب المفرط في الخيال الذي ظل دوما نبراسا وقبلة لكل من شارل سرفيس (١) ودي كرو (٢) ، وثم ايضا قصة النسوة اللاتي يتبعن يسوع حتى المصليب ، وهو يلقي فيهن خطبة تبدأ بعبارة (يا بنات اورشليم) (٣) قد تبدو هذه التحويرات طفيفة ، الا انها في الواقع تحدث في جو القصة تبدا

١ - Charles Surface : بطبل مسرحية مدرسة العضاضح
The School for Scandal وهي مسرحية هرلية شهيرة للكاتب الانكليزي شريدان (١٧٥١ - ١٨١٦) بطلها انسان في مقتبل العمر مستهتر لا يقيم وزنا لاي شيء .

٢ - Des Grieux : بطل قصه مانون ليسكو الشهيرة وهي من تأليف الاب بريغوس (١٦٦٧ - ١٧٦٣) وتحكي مأساة شاب طبيب الارومه علق بحب فناء ساقطة قلب لا يقيم وزنا لاي شيء . يبلغ من تعلقه بها انه يصحبها الى منقاهما بعد ان حكم عليها بالمعي .

٣ - لوقا ف ٢٣ .

عظيما . ان يسوع متى لا يمكن ان يكون ما ندعوه بلغة العامة «بطل النساء» . (ومع حقيقة ان المطلب الجماهيري العام للاحاسيس والمشاعر ، بقدر ما لا يكون انسانيا صرفا ، هو رجولي المنحى اكثر مما هو نسائي !) . على ان لوقا اناح الفرصة لانتشار تلك الصور التي تعلق الآن في غرف كثير من السيدات وفيها يظهر يسوع مثلما تشاهده في السينما في لورد (١) حيث يقوم بتمثيل دوره ممثل حسن الصورة . ان لمسة الواقع الوحيد التي لم يطمس لوقا آثارها متوخيا ابراز هذه النواحي من الطيبة في يسوع . هي اللوم الموجه اليه لجلوسه الى المائدة دون ان يغسل يديه ، فقد ابقى عليها ونقلها كما هي ، لان حديثا هاما كان ينوقف على وجودها مثلما اوردها دون تحوير .

انتظار المسيح

هناك وجه جديد آخر في روايته لوقا . وهو انها تبدا بين مجتمع كل امرئ فيه كان يرتقب مجيء المسيح . في انجيلي متى ومرقس يأتي يسوع الى دنيا مادية كدنيانا اليوم . والامل اليهودي العتيق جدا في مجيء المسيح لم يبدأ بالتمخض والانفاض الا عندما تنبأ يوحنا المعمدان بأن سيأتي من هو اعظم منه . وبما ان يسوع بدأ تلميذا ليوحنا هذا ، وعمد على يده ، فلم يربطه احد بهذا الامل حتى نزل على بطرس الوحي المفاجيء الذي خلق ذلك الاثر المدهش العظيم في يسوع على انك تجد في انجيل لوقا عقول الرجال ، وعقول النساء بالاخص ، ملأى بالآمال المستوفزة بمجيء المسيح لا قبل ميلاد يسوع وحده ، بل قبل ميلاد يوحنا . وهذا

١ - Lourdes : مدينة في جنوب فرنسا اقيم فيها سرار مقدس .

هو الحديث الذي يستهل به لوقا قصته فيقول انه فيما كان يسوع ويوحنا جنينين في رحمي والدنيهما ، اذ بالجنين يوحنا يرتكض في بطن امه عند اقتراب الجنين يسوع منه في زيارة للأُمّين التقتا بها . وفي يوم ختان يسوع يحيى انقياء الرجال والنساء الوليد بوصفه المسيح المنتظر .

على ان يوحنا نفسه لا يقتنع . فبادر الى ارسال شابين اليه في عهد متأخر جدا من حياة هذا (التلميذ) ليسألاه : اهو حقاً المسيح المنتظر ؟ ان هذا لقمين بالاهتمام لان يسوع يقدم لهما على الفور عرضاً خاصاً مقصوداً لطائفة من المعجزات ، وبطلب منهما ان يبلغا يوحنا بما رايا وان يسألاه بعد ذلك ما هو رايه فيه ؟ (١) ان هذا يتناقض مناقضه صريحة تامة لما اطلقت عليه «وجهه نظر روسو في العقيدة كما استخلصت من متى» . ان لوقا يكشف عن كل غفلة الروائي وسداجته بخصوص المعجزات . فهو ينظر اليها بوصفها «اشارات» ، اي براهين على الوهيته صانعها وليست مجرد قوى وسحر وشعوذة . انه ليضطرب للمعجزات كما يضطرب للامثال . فهي مادة لصياغة ابداع الاقاصيص . ولم يكن بوسعهم ان يترك دعوة بطرس ويعقوب ويوحنا وهم في قوارب صيدهم ، تمر مرور الكرام بدون تلك الاعجوبة الهائلة اعجوبة اخراج السمك الكثير بالتسبكة مما يؤدي الى غرق القارب ، فيقفز بطرس ويهتف : « اتركني اغرق ، اني من الخطاة يا سيد ! » مما يمكن ترجمته بالاتي : « لا اريد شيئاً بعد من معجزاتك ، فصيد السمك العادي يكفي قواربي » .

هناك طرائف اخرى في رواية لوقا منها : ان بيلاطس يرسل يسوع الى هيروودس الذي كان قد اظهر فضولا وحب استطلاع في

شأنه ، الا ان المعتقل لم يرض فضوله وخيب أمله فقد ابى ان يحدّثه . ويساء استقبال يسوع في قرية سامرية فيقترح يوحنا ويعقوب تلميذاه ، ان يدعوا من السماء لتصب نارا على القرية وتحرقها ، فيجيبهما يسوع بأنه ما جاء ليهلك بل ليخلص . ويظهر أيضا تحامل يسوع على علماء الشريعة ، ويبرز كذلك قراره بأنه لا يسلم لأقربائه برابطة أكثر من رابطته بالاعراب . وينتهر المرأة التي باركت أمه . ولما كان هذا كله يناقض تقاليد الخيال والعاطفة ، فكان المفروض في لوقا ان يتحاشاه لو لم يعد مقتنعا بأن أخوة الانسان وأبوة الله هي الاسمى حتى من الاعتبار العاطفية وقصة ذلك الفقيه الذي يسأله ما هي أهم وصيتين من الوصايا العشر ، يحورها بشكل يجعل يسوع هو السائل بدلا من ان يكون المجيب (١) . وأما عن العقيدة ، فلوقا لا يكون واضحا الا عندما تستثار متاعره . ان منطقته ضعيف اذ الصق جانبا من اقوال يسوع بعضها ببعض على نحو خاطيء . وهذا ما لا يصعب اكتشافه على من قراها بترتيبها الصحيح وسياقها المنطقي في انجيل متى . انه لم يستخرج جديدا في رسالة المسيح ويرى كغيره من الانجيليين ان غاية هذه الرسالة وجوهرها هو ان يسوع هو المسيح المنتظر منذ عهود طويلة . وانه لن يلبث بعد موته ان يعود الى العالم ليقيم فيه ملكوته كما هو مكتوب . وها هوذا قد بُعث حيا بعد ثلاثة ايام . على ان لوقا لا يسجل التعاليم بوصفها

١ - لوقا ١٠ : «واذ احد علماء الشريعة قد تمام فقال ليحرجه : يا معلم . ماذا اعمل لأرث الحياة الابدية ؟ فقال له : ماذا كتب في الشريعة (الوصايا) وماذا تقر فيها ؟ فأجاب السائل : احب الله ربك بجميع قلبك وجميع نفسك وجميع قدرتك وجميع ذهنك واحب قريبك حيك لنفسك . فقال له بالصواب اجبت اعمل هذا تحي » .

توطئة للتسوية او نبدا وشجبا لماطفة الحقد ، (وهذا ما لا علاقة له بالمجيء الثاني بطبيعة الحال) وانما بذهب الى ابعد من هذين الفرضين فيأتي بمبدأ عجيب لا يتفق معهما وهو ان البتر يجب ان لا يدوروا حائرين مسائلين عن ملكوت السماء وهم يهنفون بلهفه «ها هوذا هنا !» او «ها هوذا هناك !» لان ملكوت السماء هو فيهم . الا ان لوقا لم يدرك بان هذا يعود الى وجهه نظر في مسيحية مختلفة جدا . بل يبقى محافظا على وجهة نظره في الملكوت بوصفه موضعا حقيقيا ومكانا ثابتا كمدينة اورشليم او جزيرة ملغتنر .

الفصل الخامس

يوحنا (١)

قصة جديدة ، وشخصية جديدة

انجيل يوحنا هو في الواقع مفاجأة بعد الاناجيل الثلاثة الاولى . فمتى ومركس ولوقا يسردون الوقائع والاحداث نفسها بالانتظام ذاته (مع اختلاف طفيف عند لوقا) واناجيلهم تدعى والحالة هذه بالاناجيل المتناظرة ، وهم بالاصل يقصون قصة

١ - ويعرف بيوحنا الحبيب . ولد بعد المسيح ببضع سنوات ، وهو شاهد عيان وسامع لما كتب من اخبار يسوع . اكرر بعض المؤرخين نسبة هذا الانجيل اليه الذي دونه في اواخر سني حياته الى جانب ثلاث رسائل في اعمال الرسل، وسفر الرؤيا وهو آخر كتب العهد الجديد

واحد من المعلم المتجول الذي جاء اورشليم في اواخر حياته .
 اما يوحنا فيصف معلما قضى فعلا مرحلة بلوغه كلها في العاصمة .
 بما يتخلل ذلك احيانا زيارات الى الاقاليم وروايته الاسطورية
 لدعوة بطرس وابني زبدي تختلف تماما عن رواية الآخرين . فهو
 لا يقول غير انهم كانوا صيادي سمك . ويشدد في القول
 متعمدا بان يسوع لم يمارس هو نفسه عملية العمد وان كان قد
 عُمِد بيد يوحنا الا ان تلاميذه مارسوها . وتقلب عنده استغاثة
 يسوع الاليمه عندما ختم على مصيره في يستان جسيماني (١)
 الى مجرد اقتراح يتقدم به المسيح في الهيكل في فترة تسبق ذلك
 بكثير . فيه لامبالاة وبرودة دم (٢) . يحاول يسوع في هذا
 الانجيل بتسدة نفوس كثيرا ما تجده في الاناجيل الاخرى . وتعظم
 شكواه من التحامل عليه ، والإغراض الذي يلقاه ولا تجده ساكتا
 امام قيافا وبلاطس . كذلك تجده يؤكد على قيامه واكل جسده
 تأكيدا شديدا (فينصرف عنه تلاميذه جميعا باستثناء الاثني عشر)
 ويقول اشياء ظاهره الناقض والسخف لا يجد لها الفارئ العادي

جسمانية : كلمة عبرية معناها «معصرة» .

لوقا ف : ٢٢ : «ثم ابتعد عنهم مقدار رمية حجر وجنا يصلي فيقول :
 ان شئت فأصرف عني هذه الكأس ولكنها مشيئتك لا مشيئتي» . وفي
 ف : ١٤ : «ثم ابتعد قليلا ووقع على الارض يصلي لتبتعد عنه الساعة
 استطاع قال : يا ابتاه انك على كل شيء قدير فأصرف عني هذه الكأس .
 كما انا اشاء بل كما انت تشاء» . وفي متى (٢٦) «واكب على وجهه
 فيقول : يا ابتاه فلتبتعد عني هذه الكأس ان كان استطاع لا كما انا اشاء
 ا انت تشاء» . ويريد شو ان يظهر الفرق بين ما أورده هؤلاء وبين ما
 (يوحنا : ف ١٢) «الآن نفسي قلقة لماذا اقول ؟ اتوهم يا ابتاه نجسي من
 لساعة ؟ وما نلت الى تلك الساعة الا من اجل ذلك ؟ يا ابتاه مجد اسمك» .

اي تفسير ويختلف عن نفسه في الازهان انطباعا بكونه صوفيسا
مثقفا ، ولا نقول صوفيا سفسطائيا . ويبدو مختلفا في الشخصية
والمران عن ذلك الواقع البسيط الصريح الذي تراه في رواية متى
ومرقس او تلك الشخصية المدنية الساحرة اللينة الجانب عند
لوقا . كان اليهود يقولون عنه في الواقع «كيف يعرف هذا الرجل
بالكتب وهو لم يتعلم ؟» .

يوحنا : شاهد العيان الخالد

فضلا عن هذا كله فيوحنا يدعي بأنه شاهد عيان الى جانب
كونه كاتب سيرة ، ويصرح بأنه «التلميذ الذي كان يسوع يحبه»
ويزعم انه اتكا على صدره في العشاء الاخير وسأله همسا عمسن
سيقوم من بينهم بتسليمه فهمس يسوع في اذنه جوابه قائلا :
«هو الذي اناوله اللعنة التي اغمسها» ثم غمس لقمة خبز ورفعها
وناول يهوذا فاكلها فدخل فيه الشيطان بعدها . وهذه رواية
اقرب الى العقل والطبع من الروايات الاخرى التي تجعل يسوع
يتسیر بصراحة الى يهوذا دون ان تثير اشارته احتجاجا او تعليقا
او انكارا . وهي تفترض ايضا ان يسوع نقصد ان يؤثر بقواه
المعجزة على يهوذا ليدفعه دفعا الى تسليمه . ويدعي يوحنا في ما
بعد ان يسوع قال لبطرس «لو شئت ان يبقى الى ان اعود فماذا
يعنيك ؟» ويضيف يوحنا الى ما سبق بنوع ما من التواضع الساخر
بان عليه الا يدعي بالخلود كما استنتج التلاميذ لان المسيح لم
يستعمل هذا التعبير بل مجرد القول «لو شئت ان يبقى هذا الى
ان اعود فماذا يعنيك ؟» . لم يزعم اي انجيلي آخر لنفسه هذه
العلاقة الصحيحة بالمسيح او حتى الادعاء بأنه عاصره او كان من
جيله (ليس ثم اي دلائل تؤيد لنا ان متى العشار هو متى كاتب

(الانجيل) ، ويوحنا هو الانجيلي الوحيد الذي لا يمكن ان تتفق روايته لسيرة يسوع ووصفه شخصيه مع ما اورده متى عنهما . وهو يكاد يكون بمسنوى واحد مع متى في ايراده الايضاحات تكرارا وبصورة سيئة ، عن اعمال المسيح قائلا مثله انها تهدف الى تحقيق وتطبيق النبوءات التي سبق ان جاد بها الانبياء وليس اكثر من هذا . وما يؤخذ عن يوحنا من انطباع سيء يفوق مسا يؤخذ عن متى ، فهو يفوقه ثقافه وعمقا ، ويمتاز بصوفية عقلية غير طبيعية كانت مسنحوذة عليه تماما ، فاكتسافه غباءه او سطحيته في هذا الامر البسيط يحملك على بفضه وضعف الثقة به رغم سحر اسلوبه الكتامي العظيم ، وخير مثال لذلك هو تغييره تلك الحادثة التي تمتاز بالفظاظة بخصوص المرأة الغنية، الى حكاية لطيفة هي حكاية المرأة السامرية (١) . وهذا ما يجعل مسأله كونه يوحنا التلميذ ، او الرجل المعاصر ليسوع بل حتى من الجيل التالي ، امرا يحوطه الشك والريب . كل هذا اصبح موضع اخذ ورد ولم يقبل به في الاخير . لكنني اكرر مرة اخرى : اني لا اهتم هنا ، بالنزاع الذي ينشب بين الخبراء المختصين بشؤون تاريخ الاناجيل ، لا لاني اجهل ذلك بل للسبب الآتي : لما كانت اقدم النسخ التي وردتنا هي مخطوطات يونانية كتبت في القرن الرابع الميلادي ، ولما كانت النسخ السريانية الميسورة ، هي ترجمات عن اليونانية فان الخبر في المخطوطات القديمة لن يشق عليه التوصل الى اية نتيجة يتفق انها تقع موقعا طبيبا من نفسه او توائم عقيدته الخاصة ، وهو كذلك لن ينجح مطلقا في اقناع زملائه الآخرين من الخبراء الا عندما يتفقون في الميول والهوى والعقيدة ! ومن هذا استنتج ان تاريخ الرواية الاصيل لا يمكن تعيينه تعيينا ثابتا

١ - يوحنا : ف ٤ .

وعلىنا الاعتماد على الانجيليين انفسهم . هناك كما رأينا - اختلاف واضح جدا فيما بينهم لا يترك شكاً بأننا نتصدى لمؤلفين أربعة ، يختلفون فيما بينهم اختلافاً بيّناً ، الا انهم ينتهون جميعاً الى موقف واحد الا وهو توقع المجيء الثاني الذي يتفقون حوله بالقول ان يسوع قد وعد وعداً أكيداً لا شك فيه بأن يتم هذا (المجيء) في حياة أولئك الذين عاصروه . وكل مؤمن يصنف انجيلياً بعد ان يموت آخر واحد من المعاصرين ينبغي له اما ان يرفض كل ما تعلق بهذا الوعد من روايات ، او بحذفه حذفاً ، على اساس انه ما دام الوعد لم ينجز ، فليس بالامكان ان يتحقق» وأن عليه الاقرار لليهود الذين كانوا احد منتقدي المسيحيين بأن يسوع هو اما دجال واما ضحية وهم ، والا فكل الانجيليين عدا متي يصرحون بشكل بيّن انهم مؤمنون . ومن الواضح ان رواية متي ليست رواية مرتاب لذلك فانا افترض بأن الاناجيل (بعد اطراحنا التضمين والدرس) انما استمدت وقائعها من حكايات دوتت في القرن الاول الميلادي . وانا اعتبر افتراضى هذا من قبيل المسلمات البديهية ، ولا استثنى يوحنا من قرارى ، لانه مع صيانتة لمركزه (بادعاء انفراده بالتفات وحب خصوصيين من يسوع حتى انه وعده بحياة عجيبة تمتد الى ما بعد مجيئه الثاني) فيستنتج والحالة هذه انه يجب ان يكون من الاحياء حتى هذه الساعة ! وهنا لا يعني الاعتقاد ، بأن مزورا ادبياً قد يأمل في انقاذ الموقف بهذا الادعاء الواضح الزيتف . كذلك كانت رواية يوحنا في كثير من فقراتها اقرب الى حقائق الحياة العامة من رواية متي البسيطة او قصة لوقا العاطفية . وقد يكون مرد هذا الى ان يوحنا هو رجل حياة وواقع اكثر من الثلاثة الآخرين ، عرف ما لا يعرفه غيره من كتّاب السير أو من الروائيين مما يحدث فعلاً بعيداً عن الكتب والمناضد، لكن من المحتمل ان يكون امره هكذا ، لانه سمع ورأى ما حصل فعلاً ، بدلا من جمع الاخبار . ولخبراء المخطوطات القديمة ،

ومثبني تواريخ اول الروايات ان يقولوا ما يتساوون ، فيوحنا بادعائه انه ذو شهادة عيانية ، في حين صنف الآخرون تاريخا لا غير ، انما ادعاء تدعمه ارجحية من الصدق تهفؤ اليها نفسي . فأراه كمن بشر بعقيدة جديدة وجادل فيها فضلا عن كتابته فصفا . ان حجة الصدق المرجحة هذه ، قد تكون فنا دراميا تدعمه معرفة بالحياة العامة . ولكن علينا ان لا ننسى حتى في هذا ، ان افضل الفن الدرامي انما يتحقق باستخدام غريزة التنبؤ لاجل الوصول الى الحقيقة . ومهما يكن من امر ، فيوحنا لم يكن بالتأكيد ، ذلك الرجل الذي يؤمن بالمجيء الثاني . ومع هذا فهو يعرض تاريخا ثانيا بعد القضاء التاريخ الاول . وفي الحقيقة انه لا مناص لنا من الاستنتاج بأن تاريخ أصول الاناجيل انما يبتدىء من الفترة التي كان يحتمل ان يقع خلالها المجيء الثاني في الوقت الذي عينه يسوع أجلا .

لاهوتية يسوع الغريبة

مع الشكوك التي تثيرها غرابة أطوار يوحنا فان قصته عظيمة الاهمية لاولئك الذين يتخذون الانجيل مرجعا لاستمداد دين عصري معقول . ذلك لان يوحنا هو الذي يضيف الى الروايات الاخرى اقوالا جديدة مثل : «انا وأبي واحد» و«الله هو الروح» ، ولا يقتصر هدف يسوع على ان يكون للبشر حياة ، بل ان تكون تلك الحياة «اكثر غزارة» (امتياز يحتاجه كثيرا اولئك الذين برون اما ان يكون الانسان حيا او يكون ميتا . ولا يفكرون بأهمية معرفة الى اي درجة هو حي ؟) وان على البشر ان يتذكروا دوما ما قيل لهم في المزمور الثاني والثمانين (1) بأنهم آلهة وانهم مسؤولون عن

١ - يشير شو الى الايات ٣ و ٤ و ٦ من المزمور المذكور وهي :

اعمال رحمة الله وعدله . وقد رجمه اليهود لهذه الاقوال ، ولما انبهم لغباوتهم وقصر نظرهم هذا ، برجمهم شخصا لم تقدم يداه الا على الحسنات والصلوات ، اجابوا قائلين «انما نرجمك لتجديفك ولانك تنوهم نفسك إلها وانت انسان ، ولا نرجمك لاعمالك الصالحة» . وهو يصر مستندا الى (المزمور الثاني والثمانين) بأن الوهيتهم هي جزء من دينهم بتأكيد ذلك من الله نفسه فلا يمكن ان يكون ما يسندون اليه كفرا وتجديفا ذلك الذي رضي عليه (الآب) وارسله الى هذا العالم لبشر بقوله (انا هو ابن الله) الا انهم لا يقبلون بهذا ، ولا يعيرون حججه أذانا صاغية . فلم يريدوا من الهروب تخلصا من ثورتهم عليه (١) . وهنا ينتاب المسألة غموض بالفرق الذي استحدثه يسوع بينه وبين الناس الآخرين . فهو يقول : ان كنتم انتم آلهة قانا اذن إله من باب اولى ويوحنا هو الذي ينحله هذا القول كما يعزو اليه قوله «انا نور العالم» ويثبت يوحنا بصورة خاصة أهمية هذا النثار الذي التقطه لانه اعظم اهتماما بوطن خاص به حيث المسون لا يدرك الناس ، وحيث يصنعون من المعجزات ما يفوق صنيع يسوع نفسه ! وهو نسي الحقيقة يجعل يسوع وكأنه يعد البشر بهذا وعدا صريحا لا مرد له . وأخيرا يؤدي به الامر الى التعريض الجريء بأنه هو يوحنا ازلي الجسد خالد الحياة . مع هذا تراه لا يسقط الاقوال الهامة

-
- «فلتحمر الفقير ومن لا أب له .
 - فلتكن عادلا للمحتاجين والمنكوبين .
 - فلتنقذ الفقراء والمحتاجين .
 - ولتبتدعهم من الشرير
 - فلت انكم آلهة ، وكلكم اولاد العلي» .
 - ١ - يوحنا : ٥ هـ وفه ٨ .

كافة . ومهما كانت هذه الاقوال مناقضة للعقيدة التي يهدف اليها بترو و معرفة ، فانها تجتذب فيه الغريزة التي تكمن وراء الثقافة والتهديب فتجعله يحشرها حشرا كالطفل الذي يلصق نجوما ذهبية براقعة في ثوب دمية تمثل ملاكا . وهو لا يذكر خبرا عن (المعراج) وتنتهي روايته تاركا يسوع وهو عائد الى الحياة ليظهر بين آونة واخرى منرايا لتلاميذه . وفي احدى تلسك المناسبات ، نراه يصف معجزة «تكثر السمك» وهي المعجزة التي وصفها لوقا في نهاية الفترة الاولى من حياة المسيح عند دعوته ابني زبدي .

يوحنا يتفق حول المحاكمة والصلب

يتابع يوحنا خطته في اظهار براعة يسوع كمناقش ومجادل فيجعل دوره اثناء المحاكمة اقل سلبية واكثر ايجابية . الا انه يقدم الرواية نفسها للواقعة ولا يختلف عن الانجيليين الباقين في جوهرها . وهكذا لا تعن له قط المسألة التي تعن لكل قارئ عصري كما لم تعن لمتى او لوقا او مرقس من قبله . تلك المسألة هي : لِمَ لم يدافع يسوع عن نفسه ويجعل الناس ينقلونه من يد عظيم الكهنة ؟ لقد كان ذا شعبية واسعة بحيث لم يجرؤ احد على منعه من طرد الصيارفة ، خارج الهيكل ، او ان يعتقل بسبب عمله هذا . وان عليهم — عندما اعتقلوا فيما بعد ، ان يقوموا بمهمتهم في غلس من الليل وفي بستان موحش . وكان بوسعهم ان يجادلهم كما فعل كثيرا في الهيكل واجدا نفسه امام شريعة اليهود وشريعة قيصر في آن واحد ، وانه ليملك فعلا القوة البشرية التي تانمر بأمره وتقف رهن اشارته ليدعم بها حججه العقلية فكل ما كان مطلوبا منه هو ان يلقي خطبة يلم بها شعبه اتباعه ويحشد لهم . وهو كما نعلم لم يكن مكوم الفم . سيكون جواب

الانجيليين : ان كل هذه الحجج والفروض لا طائل فيها ، اذ لو
رغب يسوع في انقاذ نفسه وتجنبها هذه المتاعب والآلام كافة
لفعل ، بقبوله الاقتراح الذي صورّه يوحنا ، وأعني به ان يلقي
معتقله ارضا ويظهر قوته في عمل المعجزات . ولو انك سألت
يوحنا اذن لماذا تركهم بعد ذلك واقفين على أرجلهم ليعذبهم
ويقتلوه ؟ فانه يجيبك قائلا : هذا جزء من قضاء الله ، فقد نساءت
ارادته ان يقتل ويدفن ليقوم ويبعث حيا . وان اجتناب هذا
الامر (المقدّر) سيكون انكارا لارادة (الأب) وهذا هو التفسير
الظاهري الوحيد . وسواء آمنت مع الانجيليين بان يسوع كان
بوسعه انقاذ نفسه بأعجوبة ، او انت قلت كعلماني عصري بأنه كان
يستطيع ان يدافع عن نفسه دفاعا ناجحا ، فالواقع هو الواقع ،
وظل يسوع يابى ذلك حتى الاخير كما اتفقت عليه الروايات كلها .
كان عليه ان يموت كما يموت الإله لا ان يتخذ نفسه كأحد
الامراء (١) . ان الاتفاق حول هذه النقطة هو من الاهمية بمكان
لان فيها البرهان على ايمان يسوع المطلق باعلانه عن ألوهيته ونقى
صفة الدجل والكذب والادعاء عنه ، وقبوله الخانع بهذا المصير
المريع دون ان يبذل مجهودا لانقاذ نفسه . ليس ثم مشعوذ او
دجال بلغت به قوة الاعصاب حدا يستطيع معه احتمال التبعات
والنتائج الناجمة عن ايمانه بأنه سيقوم من القبر ويحيى حياة ثانية،
بعد ثلاثة ايام من موته . وان نحن قبلنا القصة على علاقتها ، فعلينا

١ - (الملاحظة هي للمؤلف) يسوع نفسه يشير الى الزمر الثاني والثمانين
القاتل: الناس الذين اتهموا الآخرين ظلما وبهتاناً وقتلوا الشر اومن ضمن هؤلاء
طعنا كل السكان البيض في الجزر البريطانية وفي شمال الغارة الاميركية دك
من الاماكن الاخرى) اولئك الذين حكم عليهم بعباده «هلت لكم آلهة وكلكم
اولاد اثلي» . لكنكم ستدعون كما يموت البشر وتسقطون كما يسقط الامراء .

ان تؤمن بهذا وان تؤمن ايضا بان وعده بالمجيء بالمجد وان شاء ملكوته على الارض اثناء حياة معاصريه ومعاشيه ، هو ما كان يعتقد بأنه قادر عليه وما يجب ان ينجزه . وهناك انجيليان يقولان بان اليأس ادركه في آخر فترة من اجنضاره وطفق يعتب على (الله) لانه تركه وتخلي عنه . اما الانجيليان الآخران فيجعلانه يلفظ آخر انفاسه بمحبة كاملة وبايمان قويم غير مزعزع ، بعد نطقه بالعبارة البسيطة «ها قد تم كل شيء» (١) . على ان اربعتهم يشهدون بان ايمانه لم يخنه في لحظاته الاخيرة . وانه قام من بين الاموات بعد ثلاثة ايام . واظن من التجني الشك بان الاربعة جميعهم انما كتبوا اناجيلهم وهم يعتقدون اعتقادا راسخا بان الوعد الثاني سيتحقق ايضا . وانهم هم انفسهم سيظلون احياء حتى يشهدوا مجيئه الثاني .

١ - يوحنا : ف ١٣ ، لوقا : ف ٢٢ . مرقس : ف ١٥ . متى : ف ٢٧ .

الفصل السادس

قبول الاناجيل

سيلاحظ اكبر قرائي سنا (وهم لا شك ممن اشغل نفسه بدرجات متفاوتة في الجدل حول امكان قبول الاناجيل كقصص واقعية ام رفضها) اني لم اثر هذه المسألة ولم احاول اثارتها ، واني قبلت الممكن تصديقه والمتعذر تصديقه على علاقتهما وعلى حد سواء . فعلت ذلك لان قابلية النصديق هي حالة نفسية ذاتية كما يظهر ذلك بوضوح تطور العقيدة الدينية . تلك العقيدة التي لا تعتمد على الادلة والعقل . فهناك ادلة على حصول معجزات قدر ما يوجد ادلة على حصول معركة واترلو وعلى مرور فيلق من الجنود الروس يانكلترا في العام ١٩١٤ وهم في طريقهم الى الحرب على الجبهة الغربية . واسباب الامتقاد بمقتل (بومبي) شبيهة باسباب الايمان بقيامة لعازر فكلا الحادئين صدقهما وانكرهما الناس يتساوى ذكاؤهم . نحن لا نستطيع تفسير

المعجزات كظاهرة مادية وها هي ذي تكتنفنا من كل جانب . ان الحياة بحد ذاتها هي معجزة المعجزات . والمعجزات بوصفها وقائع تخرق السبيل الاعتيادي الذي سلكه تجربتنا لا يخلو منها يوم واحد فكنيسة (المسيح العلمي) الزاهرة اقيمت على الكثير من هذه المعجزات . ولا احد يؤمن بكل المعجزات ، وكل امرئ يؤمن ببعض منها . وانا لا استطيع ان افسر كيف ان الذبن ينكرون وجودا ليسوع يؤمنون ايماناً ثابتاً مع هذا بان شكسبير لم يكن الا سيكون (١) . وليس في امكاني ان افسر كيف ان الناس الذين يؤمنون بان الملائكة نزلت وحاربوا الى صفنا في معركة مونسروبان معجزات كثيرة تحدث في لورد ومع هذا يرفضون الايمان بمعجزة سيكلان دم القديس جانواربوس (٢) فيرفضون الموضوع باعتباره حيلة من حيل الكهنوت . ليس بمقدوري ان افسر كيف ان الناس الذين لا يصدقون رواية متنى عن الملوك الثلاثة الذين جاءوا بهدايا نفيسة لمهد يسوع ، يصدقون قصه لوبا عن الرعاية الثلاثة والاسطيل . ليس في مقدوري ان افسر كيف ان الناس الذين نشأوا على الايمان بالثورة في شكلها الحرفي القديم وبوصفها سجلاً صادقاً ووحياً منزلاً لا يأتيه بظلال ، ثم يرفضون تلك النظرة من بعد : يبدأون برفض العهد العتيق ثم يخلون عن الايمان بوجود جهنم الكبريتية ، قبل ان يشغلوا عن الاعتقاد (لو خطر ذلك ببالهم) بوجود (جنسة) حفلت بالتيجان والعروش

-
- ١ - اشارة الى الادعاء ، الذي لم تثبت صحته ، بان سيكون هو مؤلف مسرحيات شكسبير .
- ٢ - St. Januarius . وقد اكد لي احد اصدقائي من القسيس انه رأى الدم يسيل متداراً في مراره في نابولي فلم استطع التفي الا حابياً سميراً من الفضة . وهو موضوع وجود الرأس !

والقيثارات . لا يمكنني ان افسر كيف ان الناس الذين لا يؤمنون بأي شكل من اشكال المعمودية ومع هذا يؤمنون بالتلقيح ضد الاصابة بالامراض ، ايماناً شبيهاً بتعصب مستنطقي محاكسهم البفتيش الصارم . اني مقتنع لو ان بضعة عشر مرتاباً وضعوا في عمودين متوازيين - قائمة بالوقائع التي وردت في الاناجيل، يدرجون في احدهما ما هو قابل للتصديق في عرفهم وما هو ليس قابلاً للتصديق ، لرأيت ان الاختلاف ما يلبث ان يبدو في قوائمهم . فالعقيدة بالضبط هي مسألة ذوق .

الموضات في العقيدة

ان مسائل الذوق هي على اغلب الراي مسألة موضعة (مودة) ونحن على وقوف بالاختلاف ما بين موضات العقيدة في القرون الوسطى وموضاتها في العصر الحديث . فمثلاً مع اننا كنا اكثر سداجة مما وجدنا عليه الناس في القرون الوسطى ، بتعاوننا مع جماعات كثيرة من السحرة والمشعوذين وقارئى البخت والعجائبين ووسطاء الاتصال بالموتى ومكتشفي اكسير الحياة ومحولى المعادن الى ذهب ومبرئي الاسقام الى درجة قد لا تحلم بها القسرون الوسيطة . ومع هذا فنحن نتناول معجزاتنا بالشكل الذي يقنع عقلية القرون الوسيطة . كانت الاعداد الحسابية تستهوي عقول القرون الوسيطة كما تستهويننا الآن لصعوبة معالجة امرها وفك طلاسمها ولان احدث الحاسبين النيوتنيين واللينتزيين يقفون في صف اعظم الرجال . هناك اعداد معينة شائعة استهوت عقلية القرون الوسيطة كعدد ٧ مثلاً . ربما لانه وتري ، وربما لان العالم قد خلق في غضون سبعة ايام ، او لوجود سبع انجم في مجموعة (الدب الاكبر) ولعشرات اخرى من الاسباب كانوا مستعدين للاعتقاد

بأي شيء فيه سبعة أو مضاعفاتها . خذ مثلا الخطايا الميئسة السبع وسيوف الحزن السبعة في قلب العذراء ، وإبطال المسيحية السبعة فكلها تبدو أشياء واضحة معقولة مسلما بها لمجرد أنها سبعة ! والعكس هو الصحيح بالنسبة لنا . فعدد ٧ عندنا هو رمز الوهم والتعوضة . ونحن لا نعتقد بما يقل عن الملايين ! أن طبيب القرون الوسطى ينال ثقة مريضه عندما يقول له أن أحشاءه تنهشها سبع دودات في حين أن تشخيصا كهذا يفضي على سمعة طبيب عصرنا : وطبيب عصرنا يقول لمريضه أنه عليل لأن كل قطرة من دمه تعج بملايين الجراثيم ، ولا يسع المريض إلا أن يؤمن بقوله فوراً ، دون جدال أو احتجاج . ولو أن اسقفا من الاساقفة قال لوليم الفاتح (١) أن بُعد الشمس عن الأرض ٧٧ ميلا لصدفه ، لا احتراماً للدين فحسب بل لأنه كان سينعر فضلا عن هذا ، بأن سبعة وسبعين ميلا هي المسافة الصحيحة المعقولة . والقيصر الألماني الحالي الذي لا تزيد معرفته بالموضوع عن معرفة وليسم الفاتح كان سيرسل هذا الاسقف إلى مستشفى الأمراض العقلية . على أنه كما اعتقد يقبل دون ما تردد تخميننا يبلغ اثنين وتسعين مليون ميل وتسعة أعشار المليون أو أيا كان من الأرقام الضخمة (٢) .

المعقول والواقع

عليّ هنا أن أذكرك بأن قابلية التصديق فينا ، يجب ألا تقاس

١ - وليم الأول ملك انكلترا (١٠٢٧ - ١٠٨٧) .

٢ - البعد الذي قدّره الفلكيون والرياسيون . وهو اليوم مقبول علمياً .

بحقيقة الاشياء والتي تؤمن بها . لم يكن الناس سذجاً عندما آمنوا بأن الارض مسطحة . فقد كانوا في الواقع يستخدمون البديهيات فاذا سئلوا اقامة البرهان على استواء الارض قالوا بكل بساطة : « لا انظر اليها ! » وأولئك الذين يرفضون الاعتقاد بكرويتها ، انما يتعاطون (شكوكية) ناجمة . ان رجل العصر الذي يعتقد بكروية الارض ، هو في منتهى السذاجة . فالرجال الذين يعتقدون باستوائها يدفعونه الى الهياج والعنف اثناء الجدل في المسألة ، عندما يفهمون ما يرونه حقا . انما اذا واجهت مثل هذا الانسان بنظرية مؤداها ان الارض اسطوانية الهئة او حلقيتها ، او هي على شكل زجاجة الساعة ، فسيربك ويفلت زمام الامر منه . قد يكون ما يؤمن به صحيحا لكن ليس هذا سبب ايمانه به ، انه يؤمن لان المسألة تستهوي خياله بصورة ما ، يصعب عليه تفسيرها . لو سألته لماذا يعتقد بأن الشمس تبعد بضعة وتسعين مليون ميل عن الارض ؟ فاما سيكون الجواب اعترافه بجهله ، واما سيقول ان نيوتن برهن على صحة تلك المسافة الا انه لم يقرأ تلك الرسالة التي برهن بها هذا العالم على الامر . بل هو لا يدري ان الرسالة كتبت باللاتينية . ولو انك ألحقت على بروتستانتى من ايرلندا الشمالية بالاجابة على هذا السؤال : لماذا يعتبر نيوتن مرجعا ثقة ويعصمه من الخطأ . ولماذا يرى القديس توماس الاكوينى (١) او البابا من الكاذبين المتعلقين بالاوهايم اللذين سيحظى برؤيتهما بعد موته : هو في موضع ما من الجنة ، وهما يشويان شيئا في النار الابدية ! او لو سألتني لماذا اضع موضع الاهتمام الجددي تحديد الكولونيل سر آلروث رايت عدد الجرائم السبحية التي يحتويها حجم معين من مصل الدم ؟ في حين لا يسعني غير

١ - St. Thomas Aquinas ١٢٢٧ - ١٢٧٤ اعظم اللاهوتيين الكاثوليك .

الضحك مع التخمينات الغائبة الاولى لعدد الملائكة الذي يمكن ان يقف على رأس ابرة ! ليس تمّ جواب معقول استطيع الادلاء به .
 الا ان السابوعات والملائكة قد بطلت موضتها بعض الشيء . وان البليونات والجراثيم السبحية هي آخر مودة . اني لا استطيع ان اخبرك حقاً ، لماذا كان يكون (١) ومونتين (٢) وسرفاننيس (٣) مودة شائعة من ناحية الثقة او عدم الثقة بأقوالهم ، مودة تختلف اختلافاً بيننا عن مسودة المحترم بيده بايرز بلاومان (٥) والفلاسفة الالهيين من مدوسة الاكوييني - ارسطوطاليس الذين لم يكونوا على وجه التاكيد اكثر غباء وكانت الحقائق نفسها مبسوبة امامهم . وبافنراضنا ان قادة الفكر هؤلاء قد انجزوا تعليل عقائدهم لانفسهم ، تزداد صعوبة حلّي هذا السؤال : لماذا كانت نتائجهم ومصادرههم تبدو مقنعة لجيل من البشر ، وملحدة غير مقنعة لجيل آخر ، في حين لم يتتبع ايهم الموضوع بالتعليل ومحسّض الوقائع لذلك فمن العبث البدء في الخصام مع القارئ حول ما يجب الايمان به من الاناجيل وما يجب الا يؤمن به فمن السخف والعبث محاولة وضع حدود فاصلة اذ ستكون اعتبارية للغاية .

-
- ١ - Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦) فيلسوف انكليزي ورجل دولة .
 - ٢ - Montaigne (١٥٣٢ - ١٥٩٢) كاتب فرنسي وفنّان اسابي النعرة ،
 تعتبر كتبه من بين اعظم كتب الحكم والتأملات الفكرية . واسلوبه لا يخلو من
 نكتة ولهجة مرح .
 - ٣ - (١٥٦٧ - ١٦١٦) روائي اسباني ومسرحي اشتهر بروايته دون كيشوت
 (Don Quixote) .
 - ٤ - المحترم (٦٧٣ - ٧٢٥ م) مؤرخ ومفكر ديني انكليزي .
 - ٥ - ملخصه طويلة شعرية بهذا العنوان « رؤيا باينرز يلاومان »
 The Vision of Piers Plowman نظمها وليام لانغلند Langland

يخبرنا يوحنا الانجيلي ان يسوع عندما اعلن تفوقه الالهي بصراحة تقديم جسده ودمه ، تركه كثير من تلاميذه حتى انخفض عددهم الى اثني عشر . كثير من القراء اليوم لن يقولوا مثلهم على الصمود هذه المدة الطويلة وسيستسلمون عند اول معجزة . اما الآخرون فانهم يميزون بين انواع المعجزات ، فيقبلون معجزات الشفاء ويرفضون معجزات اطعام الجموع الغفيرة وستكون معجزة السير فوق الماء عند بعضهم مبالغة أسطورية في قابلية العوم تنتهي بانقاذ اعتيادي لحياة بطرس . واما إحياء العازر (١) فستكون تمجيذا مماثلا لمآثرة عادية من مآثر عمليات التنفس الاصطناعي . في حين سيسخر الآخرون منها بوصفها حيلة مدبرة مثل فيها العازر دور التريك . ان بين الرفض الروائي لهذه المعجزات (بوصفها محض خرافات) وبين قبولها على علاتها كما قصده الانجيليون منها ، تجد تم ظلالا عديدة من الشك واليقين ، مسن العطف والتهكم ! والمسألة ليست مسألة كونك مسيحيا ام غير مسيحي . فالعربي المسلم قد يقبل حرفيا وبدون اي اعتراض ، اجزاء من القصة التي يتحتم على رئيس اساقفة انكليزي ان يرفضها او يستبعدا . ان كثيرا من الشيوعيين (٢) وهواة الحكمة الهندية ممن لم يدخلوا كنيسة مسيحية الا لفرض سياحي . ستتهز مشاعرهم اجزاء من انجيل يوحنا لا تعني شيئا عند احد من رجال الصناعة الانكليز الورعين الواقعيين . ان كل قارئ

١ - متى : ف ١٤ ويوحنا : ف ١١ .

٢ - اولئك الذين يؤمنون بالعقيدة المسماة بهذا الاسم : Theosophy

وهي مذهب فلسفي ديني ، يفترض وجود الله كجوهر روح كائن في الكون كله وهو مصدر كل حياة وكل صلاح . اما الشر فهو من عمل الشر بسب طمعهم وهافتهم على امور الدنيا .

اخذ من التوراة كل ما استطاع اخذه وتقبله . وانا بالمامي المامسة
سريعة بروايات الانجيل لم افرض على قارئى اى تحديد لا بخصوص
صحتها ولا بخصوص قابلية تصديقها . اني لم اقم بغير إخباره
وتذكره . وفق ما تتطلبه كل حالة . بما تحدث لنا هذه الروايات
عن بطلها .

مسيحية التماثيل ومخاطرة تحطيم التماثيل

ينبغي لى ان ابدا الآن هذا السلوك لاقوم بتحويسل اهتمام
القارئء تحويلا جديا ازاء هذه المسألة ، وهي : هل ان ايمان
القرون الوسيطة وراى الميثوديين بالجانب القدائسي (الخلاصي)
والمجانبي من الانجيل قد خيب ظنوننا كما خيب ظنون قادة الفكر
الحديث ؟ ومتى كان ذلك ؟ واذا كان الامر كذلك ، استخلف اى
شيء بعد هذا من رسالة يسوع . وبعبارة اخرى هللا سنقوم
بالقاء الاناجيل في قنط الاورق المهملة ، او وضعها على رف
القسم الخاص بالروايات الخيالية من مكتبتنا ؟ انى لاتجاسر على
القول باننا سنقدم على هذا خلافا لحالة ذلك الرجل في لفز«بنيان»
لما وجد ما عنده يزداد بقدر ما ألقى منه . وسنتخلص مبدئيا من
عنصر الشرك في عبادة المسيح بعبادة اخرى من عبادات الايقونات
وبهذا اعني حرقيا تلك العبادة التي تقدم لصوره وتماثيله وللقصص
المعقولة وغير القابلة للتحوير المروية . ان محك ذلك وآية تسلطه
على الفكر هو انك تتكلم وتكتب عن يسوع بوصفه إلها ما زال ذا
فاعلية . فان فزَع امثال هؤلاء العبثاء سيكون اعظم من فزَع
دون جوان (1) عندما نزل التمثال عن قاعدته وشاطره عشاء .

١ - اشارة الى احد الروايات عن هذه الشخصية الاسطورية . فيعد ان قتل
ابا حبيبته في مبارزة ، وعلى سبيل المزاح دما تمثالا للقتيل للعشاء معه ، فقتل
التمثال الدعوة ، وبخاتمها سحبه معه الى جهنم ليلقى جزاء اعماله .

انك قد تنكر الوهية يسوع ، وقد تشك حتى في وجود شخص بهذا الاسم جاء الى الحياة . قد تنبد المسيحية وتتحول لاعتراف اليهودية او الاسلام او الشنتوية (١) او عبادة النار (٢) ، ولن يفعل عبّاد التماثيل اكثر من وضعك في صنف الملاحدة والكفرة وهم منك سباحرون برصانة وهدوء ! ولو تجاسرت عسالت : كيف كان سيبدو وجه يسوع لو خلق شعر ذقنه وازال لحيتته ، او تساءلت : ما مقاس الحذاء الذي كان يلبسه يا ترى ؟ وهل انه شتم ولعن عندما دخل قدمه مسمار في دكان النجارة . او عندما عجز عن تزوير عروة ردائه وهو في عجلة من امره ؟ وهل فهقه ضاحكا للاجوبة المسكتة التي كان بها يحير عقسول الكهنة حين يحاولون الايقاع به او لجره الى التجديف والزندقة ؟ حتى لو عمدت الى رواية اي جزء من قصة حياته بتعابير عامية مبتذلة اصيلة فانك ستحدث استنكارا وفزعا لا مزيد عليهما بين عبّاد التماثيل . انك ستجعل (الصورة) تخرج من اطارها والتمثال ينزل عن قاعدته والرواية تغدو حقيقة واقعة بكل النتائج التي تفوق المحصر ، المتدفقة من هذه المعجزة الخيفة ، في هذه اللحظة وامثالها فحسب ، ستدرك ان عبدة التماثيل لم يتصوروا المسيح ولو للحظة واحدة ، شخصا حقيقيا او قوة من القوى ، كالكهرباء لا تحتاج الى استحداث ميكانيكية سياسية مناسبة لتطبق على شؤون البشر وتعطي نتائج ثورية .

من هذا ترى ، ان الخطر في مجتمعنا ليس بالكفر وانما الخطر هو بالايمان الاعمى . ففي الوقت الذي تدرك (وهو امر محتمل

١ - الشنتوية هو دين الياپان القديم . ويتلخص بالايمان بأن الظواهر الطبيعية ارواح يمكن ان تنفع او تضر وان الناس اذا صدوها هدتهم الى العمل الصالح .
٢ - يقصد بها الجوسية او الزردشتية .

وقوعه في اي يوم) بأن يسوع ليس تلك الصورة الجامدة الوديعه التي تخيلتها ايها القاريء الى هذه اللحظة . وانما هو مركز تجمع الاتجاهات لكل الميول الثورية التي تحاربها كل الدول والكنائس المقررة قانونا . وعليكم جميعا عندئذ ان تحتاطوا لانفسكم لانكم نفختم الحياة في الصورة . وقد يعجز الرعاع والسوقة عن تحمل هذا الهول .

ما هو البديل عن برابا

ولكن ينبغي الوقوف في وجه السوقه اذا كان في ذلك انقاذ المدنية ، ولا يحتاج الامر الى حرب كالحرب الحالية (١) للبرهان بأن كلا من (المسيح الايقوني) و(مسيح يولس الرسول) قد فشل في تحقيق خلاص المجتمع البشري . ففي الوقت السلي اكتسب هذا ، اشيع ان الاتراك يوقعون بالارمن الميحيين مذبحه لسم يسبق لها مثيل . لكن اوروبسا ليست الآن في وضع تستطيع فيه الاحتجاج . فمسيحيوها يذبح بعضهم بعضا بكل الآلات والادوات التي وضعتها المدنية في متناول يدهم وبالحماسة التي تحذوهم وهم يقتلون الاتراك . ان البرابية منتصرة في كل مكان والنفع الذي تناله من انتصارها هو انها تقودنا جميعا الى الانتحار المصحوب بمظاهر بطولية واكاذيب مدوية . والآن فان امثالي من الذين يرون النظام الاجتماعي البرابي نظاما فاشلا وان (قصة الحياة) (٢) او ما شئت ان تسميها ، لا يمكن ان يعترها اي وهن

١ - اي الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨ .

٢ - وهي الفكرة التي استخدمها شو لفلسفته واطلق عليها اسم Life Force . يصفها بالقوة الدافعة ، او الروح ذات الفاعلية في النساء والرجال ، فتدفع افضلهم الى التطور والتقدم توصلنا الى مخلوق انساني اكثر نبلا .

او فشل ، بل ستتخطى الانسانية بتوليد نوع ارفع منها ، ان لم نفلح في السيطرة على المشاكل الناشئة من تضاعفا العددي . هؤلاء ما فتئوا يقولون دوما ان يسوع كان ذا رسالة حققة وانه شعر بسحر شخصيته وعقيدته وهذا لا يعني انه يجب علينا اليوم ان نحلم بالادعاء بأي قوى خارقة للطبيعة له ، بله اقل كثيرا ممن العوى العلمية التي تلازم فيلسوفا عصريا مثقفا او فقيها قانونيا . ولكن عندما نتخلص تماما من المسيحية التي تركز على عقيدة (الخلاص) او حتى عندما نتعامل على المسيح بخصوص علاقته اللاارادية بالمسيحية الخلاصية ونلتزم بدراسة علمية خالصة في الاقتصاد وعلم الاجرام والبايولوجي فسنجد استنتاجاتنا العملية هي بالجوهر عين استنتاجات يسوع نفسه واذ ذلك سيفمرنا الفرح وسيسمجعنا ذلك على الاقرار باننا نلحق به ظلما صارخا ، وان هالة نور العلم التي تحيط براسه في الصور المختلفة المعمولة له قد تترجم يوما ما ، بانها هالة نور العلم اكثر مما تترجم بانها اظهر للمشاعر ، او وصمة عار وثنية .

وهكذا تجد العقائد التي ثبتها يسوع هي التالية تقريبا :

- ١ - تخلّص من الملكية الخاصة بالفائها في ملكية المجموع . وابعد عمل يومك عن امر احتسابه بالاجر النقدي . ان تركت طفلا يجوع فانك تترك (الله) جائعا . انبذ كل قلق بخصوص طعامنهار غد وليلة غد، لانك لا تستطيع عبادة سيدك : الله ومأمون (١) .
- ٢ - ان ملكوت السماء هو في نفسك وانت هو ابن الله والله هو ابن الانسان . الله هو روح تجب عبادته بالروح وبالحق . وليس هو (جنتلمانا) كبير السن يمكن الاستجداء منه ورشوته .

١ - كلمة آرامية تدل على الغنى . وتشتمل اليوم للاشارة الى اله المال

الخيالي .

نحن اعضاء بعضنا عضو لبعض ، لذلك لا يمكن ان تجرح جارك او تعينه من دون ان تجرح نفسك او تعينها . الله هو ابوك وانت هنا لاجل ان تقوم بعمل الله . وانت وابوك واحد .

٣ - تخلص من المحاكم والقضاء والعقاب والشار والانتقام . احب جارك كما تحب نفسك لانه جزء منك واحب اعداءك لانهم جيرانك .

٤ - تخلص من قيود الاسرة . وكل ام تلقاها هي ام لك قدر ما هي ام لك تلك التي حملتك في بطنها . وكل رجل تلقاه هو اخ لك بقدر ما هو اخوك ذلك الذي حملته امك جنينا بعدك . لا تبدد اوقاتك في تسريع جنازات الموتى من آلك واصحابك ولا تجزع على اقربائك ، فلتكن مهتما بالحياة ولا تلق بالآلى الموت ، ففي البحر من السمك الجيد اكثر مما خرج منه واحسن . وفي ملكوت السماء الذي هو في نفسك (كما اسلفنا) لا يوجد زواج ولا زوجات ، لانك لا تستطيع ان توقف حياتك على عبادة الهينة الله، وزوجك .

هذه مقترحات في غاية الاهمية ، واهميتها تزداد يوما بعد يوم طالما يدفعا العلم والتجربة الى التفكير فيها تفكيرا صالحا باطراد متزايد . اننا لنضيع وقتنا في تقديمها الا اذا اقمنا بناءها بشكل معقول . ويجب علينا ان نفترض ايضا ان الرجل الذي تبين طريقه خلال مثل هذه الكتلة من العاطفة الشعبية والوهم التي تقف بيننا وبين شعور تقييم حقيقي لمثل هذه التعاليم ، كان عليما تمام العلم بكل الاعتراضات التي تبدو لسمسار بورصة متوسط الحال في اول خمس دقائق . صحيح ان العالم يحكم الى درجة كبيرة بتلك الاعتبارات التي تلوح لسماسرة البورصة في اول خمس دقائق ، ولكن لما أضت الدنيا سيئة الحكم (لهذا السبب) السي درجة لم يعد اولئك الذين يعرفون الحقيقة ، بقادرين على احتمال العيش فيها الا بصعوبة . فان اعتراض سمسار بورصة متوسط

الحال ، يتضمن في ذاته (قضية مبدئية
لاي اصلاح اجتماعي .
Prima Facie

تحويل المسيحية الى ميدان التطبيق الحديث

والامر سواء .. وعلينا نترتب تحويل وصايا يسوع ومقترحاته
الخلقية الى ميدان التطبيق العملي الحديث . لو سألنا سمسار
البورصة هذا ان يعمل طبق ما تصح به يسوع تلاميذه فسيجبنا
(وهو مصيب) : انكم تنصحوني بأن اعود متشردا افاقا ! ولو
حضضنا غنيا على بيع كل ما يملك ويعطيه للفقراء ، فسيعلمنا بأن
مثل هذه العملية متعددة . اذ لو باع اسهمه وارضيه ، فسيتم
شاريها في تلك الاعمال الجائرة التي بظلم بها الفقراء . ولو عمل
الاغنياء قاطبة بهذه النصيحة في وقت واحد فستنخفض اسعار
السندات الى الصفر وتصبح الاراضي غير قابلة البيع . ولو باع
رجل ما يملكه ، وألقى المال الى ساكني الاحياء الفقيرة فالنتيجة
الوحيدة ستكون اضافة نفسه ومن يعيلهم الى قائمة الفقراء ،
بينما لا يكون في عمله فائدة للفقراء اكثر من ان يتيح لقلة منهم
فرصة لاقامة حفلة سكر معربة ! ويجب والحالة هذه ان لا يغيب
عن بالنا ما جرى في ايام يسوع وفي العصور التي تلت موته
وكيف زادت ايام الفترتين ظلما على ظلام حتى بلغ اوجه (باستثناء
فجر عصر الاصلاح الديني والنهضة الاوربية الزائف القصير
الامد) بليل التجارة في القرن التاسع عشر ، وقتما ساد الاعتقاد
بأنك لا تستطيع ان تصلح من حال الناس بقانون يصدره البرلمان،
ترالك في ايماننا هذه ، شديد الثقة بأنك لا تستطيع تحسين
اوضاعهم بطريق اخرى غير هذه الطريق . وان الرجل الافضل من
ابناء جلدته حالا هو مصدر ازعاج وضرر ، وان الفني يجب ان يبيع
لا نفسه وحدها بل نفوس كل طبقة وان ذلك لا يمكن ان يتم الا

عن طريق وزير المالية . وان التلميذ لا يمكن ان يحصل على خبره بدون مال يدفعه ، الى ان يوجد خبز مجاني للجميع ، وهـسـلـة يتطلب تنظيمها بلديا مدعما بالرسوم والضرائب . ان كون الانسان الواحد عضوا من الانسان الآخر يعني هذا : رجل واحد = صوتا واحدا . امرأة واحدة = صوتا واحدا ، اقتراعا واحدا ، دخولا متساوية الخ ... من الاعمال السياسية . حتى في سورية على عهد يسوع لم يكن بالوسع استيعاب تعاليمه وتفهمها عن طريق سلسلة من انفجارات صلاح واستقامة مستقلة . فظهر ذلك في وحدات منفصلة من المجتمعات البشرية ، ولم يكن بوسع اورشليم نفسها ان تفعل ما لا يمكن مجتمع قروي ان ينهض به . وما لم يكن بوسع روبنسن كروزو نفسه ان يقدم عليه لو لم يمل عليه وجدانه وواجب الطبيعة الصارم قاعدة عامة جاهد في سبيلها نصف دزينة من امثال روبنسن كروزو للظفر بتعويضات لم يرضوا عنها رضاء تاما . فما لم يكن تحقيقه ممكنا في اورشليم او في خـسـوان فرناندين (1) ، لا يمكن انجازه في لندن ونيويورك وباريس وبرلين . وعلى اية حال ، ينبغي لنا ان نترك المسيحية خارج نطاق امور البشر الحياتية صالحة كانت هذه الديانة ام طالحة ، خاطئة ام مصيبة ، حتى تصبح قابلة التطبيق عملا ، بعد استحداث مستنبطات سياسية معقدة فيها . واذا زعمنا ان واعظا مسن الصحراء تحت حكم بيلاطس البنطي او بيلاطس نفسه بما يملك من الحكمة الرومانية يتمكنان من وضع نظام سياسي عملي من العقيدة المسيحية او اي نظام اخلاقي آخر غيرها لاجل تطبيقه في عالم القرن العشرين ، اذا زعمنا هذا فاننا ننبذ المسيحية بأشد مما

١ - جزيرة في المحيط الهادي عاش فيها البحار الاسكتلندي الكساندر سلكيرك وحيدا من ١٧٠٤ الى ١٧٠٩ ، ومن حياته هذه استوحى داليل دفو قصته روبنسن كروزو .

نبلدها يرون وكل مصطفيديها الآخرين الذين اصابوا نجاحا في عملهم هذا . ان الورع والتقى الشخصى . مضافا الى واقع انك لا تستطيع ان تصلح من اخلاق الناس بقانون يستثه البرلمان . انما هما وسيلتا دفاع فعالة يلجأ اليها الناس الذين يفرون بارادة منهم او بحالة لاشعورية لكي لا يدعوا يسوع او اي مصلح آخر يتدخل في امر ما يملكونه من مال ومقنى .

الفصل الثاني

الشيوعية الجديدة

والآن فلنر ماذا تقول التجربة الحديثة وعلم الاجتماع في اقتراح يسوع وجوب التخلص من مقتناك واعتباره ملكا مشاعا . ان المرء ليسمع فرّيسي اورشليم وجرّيسن وبيت صيدا (١) يقولون : لو قمنا يا صاح بتقسيم ثروة اليهودية قسمة مساواة في هذا اليوم بالذات فستجد قبل نهاية السنة معدمين واغنياء ايضا . ستجد فقرا واثراء مثلما تجده اليوم ، لان وجود المكسّال والمثابر ، والمقتّر والمبدر ، والسكّير والعزوف من الخمر ، هو امر مفروغ منه . وكما اصبحت كبد الحقيقة بقولك «سيكون الفقراء معنا دائما» وبوسعنا ان نسمع الجواب «الويل لكم ايها الكاذبون المراءون ، ها انتم في هذا اليوم بالذات ، قد قسمتم ثروة البلاد

١ - جرّدين او كوردين هي مدينة قريبة من بحيرة طبرية لم يبق منها الان اي اثر ، و(بيت صيدا) كانت بلدة على شاطئ البحيرة في الشمال الشرقي .

بأنفسكم . كما يجب ان يسم ذلك يوميا . (ذلك لان الانسان لا يمكن ان يعيش بصورة أخرى غير الميئس من اليد الى الفم وهو عيش الكفاف . ولا يمكن للبيض والسماك ان يحملا الى الأبد) . ومع هذا فقد خلت قسمتكم اياها من كل عدالة ؛ وكذلك قلم ان ثانيي لكم بالابقاء على الففراء بينكم على الدوام ، بأنه قانون يسري عليكم مستخلصين بان هذا الشر مؤبد باق . وان رائحته الكريهة ستظل تركم انف الله الى الأبد الأبد . ولذلك يخيل لي ان العازر سيجدكم قريبين من الاغنياء في جهنم» . ان (الراسمالية الحديثة) كانت قد تولت القضاء على الاحياجات الاولى حول التفاوت فسي الثروات . والفريسيون انفسهم كانوا قد نظموا (شيوعيسية رأس المال) فالملكية الشائعة هو الامر اليومي الواجب اتباعه ، وكل محاولة للعودة الى الملكيات الفردية كأساس لانتاجنا قد تؤدي الى تدمير مدنينا تدميرا كاملا يفوق ما نخلقه من الدمار حشر ثورات . انك لا تستطيع ان تقوم بفلاحة حقول برمتها في يومنا هذا الا بعد ان يصير الفلاح تعاونيا . الا فلترافق مثلا ، حامل أسهم السي سكة الحديد التي يملك فيها أسهمه ولتطلب منه ان يحدد لك مسافة معينة من تلك السكة يعود له شخصا ، او ان يشير الى المقعد الذي يملكه من عربة القطار ، او ان يدلك على عتلة معينة من تلك القاطرة لا احد ينازعه في ملكيتها . ولسوف تراه يفر منك فرار السليم من المجلدوب . وان انت حاولت كحتنيا وسيفيرة (١) الاحتفاظ بحانوتك الصغير او ما اليه وتحبسه عن الملكية العامة الموحدة المتمثلة بالترست او الكومباين او الكارتيل (٢) فسان

١ - اعمال الرسل ب ٥ . دعا عنيهما الرسول بطرس وقتلها لاحمالها مالها عن الجماعة .

٢ - Trust, Combine, Kartel ، مصطلحات اقتصادية تطلق باختلاف طفيف في ما بينها على مجموعة من الصناعيين او المالبين ، يتفقون

الترست سيضعقك ويجمدك ويوثق كفافك وثاقا محكما ، وبالاخير
يوجه اليك ضربة صناعية قاتلة كضربة الرسول بطرس القاضية !
لم يعد ثم اي مجال بعد الآن لطرح سؤال عملي حول شيوعيته
الانتاج ، اعني حول التقسيم اليومي له ، وهو اول ضرورة من
ضرورات المجتمع المنظم .

اعادة التوزيع

واليوم لا تدرك حاجة يسوع لاقتناع اي شخص بان نظام
التوزيع عندنا هو على اعظم درجة من الخطأ واشنع . فلدينا
اطفالنا من اصحاب الملايين . ولدينا الى جانبهم معدمون اذنتهم
حياة البؤس المتواصل وقت الشفاء في عضدهم . يموت شخص
واحد من كل خمسة نرلاء دار شغل الفقراء (١) ومسنشعسي
حكومي او بيمارستان . اما في المدن امثال لندن فالنسبة تصعد
الى واحد من كل اثنين ! وطبيعي ان التوزيع بلغ من الظلم المريع
ما بات معه ضروريا ان ينملى ويفرض فرضا بالعنف والقوة وبكل
ما تتصور من بساطة فان اعترضت حوربت وقضي عليك . وان
قاومت اشبعت ضربا وسجنت . وهذه العملية يطلق عليها العبارة

ما بينهم بحسب شروط معينة وبالنظر الى بضاعة واحدة او بضائع مختلفة
سل فيما بينها اتصالا انتاجيا او استهلاكيا - لتحديد الانتاج وتوحيد الاسعار
بحدود مناطق البيع ، واتخاذ التدابير لمحاربة شركات منتجة لنفس تلك
لبضاعة ، لغرض الاحتكار والقضاء على المنافسة التجارية .

١ بموجب (تأمرن الفتر) الملقى الآن في الكلترا ، كان يوضع العجزة وكبار
الس والماطلون في مؤسسات حكومية تدعى (دار الشغل) لضمان اسكانهم
وطعامهم .

اللطفية «اشاعة النظام والقانون» ! لا يمكن للتعاون ان يبلغ اكثر من هذا انتظاما . ففي زمننا هذا لم يعد واحد من العارفين بأرقام التوزيع الحقيقية يستطيع الدفاع عنها . وقد يتردد أشد المحافظين البريطانيين تعصبا في القول بأن مليكه لا بد وان يكون أشد فقرا بكثير من مستر روكفلر او ان يعلن النعوق الاخلاقي لمهنة الدعارة على مهنة شغل الابرة ، لان الربح من المهنة الاولى اكثر من ربح المهنة الثانية . ان الحاجة الى عملية اعادة توزيع جذربة للدخل في كل البلاد المتقدمة ، هي حاجة واضحة لا يماري فيها احد ومسلم بها عموما بقدر ما كانت وسائل الوقاية من الامراض وحفظ الصحة واضحة وضرورتها مسلم بها عموما .

أفي امكان الصانع ان يملك ؟

ما ان نأتي الى مسألة تحديد النسب التي يجب ان تبنى على اساسها قاعدة اعادة التوزيع حتى يبدأ الجدل . اننا لا نصدق آذاننا ويعترينا الدهول اذ نسمع من يقول بالفكرة السخيفة غير الواقعية ، وهي ان يعطى المرء مثلما يعطى احدهم جائزة حسن السلوك في (مدرسة الاحد) ، لا على اساس ما يكفي لسد خلته واشباع بطنه . تلك الحماسة عقئدها راي آخر اقل سخافة وأكثر بُعدا عن الواقع ، وهو انه يمكنك ان تخصص لكل شخص جانبا من الدخل القومي محددا بما ينتجه هو او تنتجه هي . ولقد يبدو في نظر الصبي الصغير ان الحداد هو الذي يصنع حدوة الحصان ولذلك يجب ان تكون الحدوة ملكا له . الا ان الحداد يعلم بأن الحدوة لا تعود له وحده ، بل لصاحب الملك ولجاني الضرائب ومحصل الاعشار والناس الذين ابتاع منهم الحديد والسندان والفحم . وهؤلاء لا يبقون له لقمة صغيرة من قيمتها . وهو يدري ان عليه ان يبادل هذه (اللقمة) مع القصاب والخباز وبائع الشاي

بالاشياء التي تتطلبها نسجة جسمه الحية وما يغلفها من بشرة، او يدفع لكل من هؤلاء اكثر من قيمة الكلفة لان هؤلاء الصناع زملاءه مثله لديهم من وجب عليهم ان يسدوا مطالبه من اصحاب ملك وعملاء . فاذا اتضح بأن مثل هذه النماذج القروية البسيطة المباشرة للانتاج الفردي الظاهري ، هي في الواقع (بعد تأمل وفحص آني) من اسباب نظام اجتماعي معين ، فما الذي يقال عن مثل هذه المنتجات ان كانت على شكل دارعات بحرية وإبر ودبابيس واقلام فولاذية منتجها المصانع ؟ ان أمسك الله دارعة بيد ، وقلما قولاذيا بيد وسأل ايوب عن صنعها ولمن يجب ان تعود ملكيتهما بموجب حق الصانع ، فلا بد ان ايوب سيحك رأسه الماكر بكسرة من الفخار ولا ينطق بحرف ، الا اذا خطر له ان يقول بان الله هو الصانع الاول وان كل ما من حقنا ان نعمل بالمنتوج هو اطعام حملانه وخرافه منه .

اوقات العمل

لذلك فالبديل الذي اتخذه الصانع عن نصيحة يسوع لا يجديه فتىلا ، وليس ثم ما يمكن عمله من هذه الجهة ، الا ان تدفع للعامل بحسب الوقت الذي يستغرقه العمل . اي لكذا من الساعة او اليوم او الاسبوع او السنة . ولكن كم ؟ عندما يعن هذا السؤال للخاطر فالجواب الوحيد الذي تلفاه له هو : «بالاقل مما يضطره الجوع الى قبوله» وهذا ما يواجهنا بالنتائج المضحكة التي المتنا اليها آنفا ، فضلا عن الشذوذ الذي يتجلى في ذهاب النصيب الاوفر الى الدين لا يشتغلون مطلقا ، والنصيب الاقل لمن يقع عليه النصيب الاكبر من العمل . ففي انكلترا مثلا تدخل تسعة اعشار الثروة القومية جيوب عشر السكان .

الحلم الذي يقضي بالتوزيع بحسب الاستحقاق

و ضد ما بيناه آنفا ، يأتي احتياج نظري (مدرسة الاحد) قتراهم يقولون : لماذا لا نوزع حسب الاستحقاق ؟ والمرء هنا يتخيّل يسوع بابتسامة عريضة عبر القرون المتعاقبة ، في حين كانت محاولة التهرب من تعاليمه تمنى بالنكبات والاختافات ، ابتسامة تتسع وتزداد عمقا لتصبح ضحكة تامة ! هناك مشروع اعظم بلاهة من مشروع تحديد الفضيلة بالمال . وفي هذا الموقف علينا ان نفترض ان (معهد الاقتصاد) في لندن وضع عددا من الاسئلة الامحائية على النحو الآتي :

« اذا اعتبرنا القيمة النقدية لفضائل يسوع مائة ، ولفضائل يهوذا الاسخريوطي (١) صفرا ، قاعط النسبة الرقمية الصحيحة لفضائل كل من : ١- بيلاطس يونس ، ٢- صاحب حظيرة الخنازير في بلاد الجديين (٢) ، ٣- الارملة التي وضعت في صندوق الصدقة فلسا واحدا (٣) ، ٤- مستر هوريشيسو بوغلي (٤) ، ٥- شكسبير ، ٦- مستر جاك جونسون (٥) ، ٧- السير اسحق نيوتن ، ٨- بالسترينا (٦) ، ٩- اوفنباخ (٧) ،

١ - احد الانبياء عشر وهو الذي سلم يسوع الى متقلبه لغاء ثلاثين قطعة فضة .

٢ - جنوب شرقي بحيرة طبرية بالقرب من (عيون الحمة) .

٣ - مرقس : ف ١٢ .

٤ - صحفي انكليزي ورجل اعمال . سجن خمس سنوات بجرمة احتيال .

٥ - ملاكم اميركي ، بطل العالم في الوزن الثقيل من ١٩٠٨ حتى ١٩١٥ .

٦ - ملحن ايطالي .

٧ - مؤلف موسيقي فرنسي .

١٠- السر توماس لبتون (١) ، ١١- مستر بول سنكويغاللي (٢) ،
١٢- طبيب أسرتك ، ١٣- فلورنس نايتنغيل ، ١٤- السيدة
سيدونز (٣) ، ١٥- خادمتك المياومة ، ١٦- رئيس اساقفسية
كانتربري ، ١٧- الجلاد الرسمي .

أو ان تقوم بوضع السؤال التالي :

«المرحوم السيد بارني بارناتو (٤) حصل على دخل شرعي
قدره ثلاثة آلاف ضعف مدخول فلاح انكليزي أجبر عرف بأخلاقه
الحسنة مموما : عدد الفضائل الرئيسة التي يمتاز بها مستسر
بارناتو هذا ، على الفلاح الاجير بمقدار ثلاثة آلاف مرة . ويثن
بالارقام ، الخسارة التي لحقت بالحضارة عندما آل الامر بالسيد
بارناتو الى اليأس ثم الى الانتحار ، بسبب نقص مدخوله بالثلث
فقط ! » .

ان رأي (مدرسة الاحد) المبني على قاعدة «لكل فرد الدخل
الذي يستحقه» لهو أسخف بكثير من ان يكون جديرا بالمناقشة
يقدر نبذه هاملت نبذا ، قبل ثلاثمائة عام اذ قال «استعمل كل
شخص حسب مؤهلاته ولن ترى احدا ينجو من المقرعة» (٥)

-
- ١ - تاجر بريطاني كسب ثروة طائلة باستحداث بيع الاطعمة الجاهزة .
 - ٢ - مشعوذ وساحر عرف ببراعته الشديدة .
 - ٣ - (١٧٥٥ - ١٨٣١) من اعظم المثلاث الانكليزيات .
 - ٤ - (١٨٥٢ - ١٨٩٧) كان معدما لا يملك شروى نقيز ، فاصبح صاحب ملايين من
استغلاله مناجم الالماس في (كمبرلي) بجنوب افريقيا . انتحر باللقاء نفسه من
سفينة كانت مبحرة به الى افريقيا .

٥ - دونك النص من مسرحية هاملت (فصل ٢ ، مشهد ١) :

Use every man after his desert, and who Should'
scape whipping ?

ان يسوع لىبقى صامدا كأي رجل واقعي عملي ، ونحن ! نقف هدفا مكشوفنا كالحمقى والرعاء ، والواهمين غير البعيدين كثيرا عن الواقعية . فى اللحظة التي تحاول ان تحوّل فكرة (مدرسة الاحد) الى ارقام تجد انها ستبلغ بك الى مشروع عقيم هو «الدفع على اساس الوقت» وسنقرا في ورقة اختبارك : ان وقت يسوع لا يسوى شيئا (كان يشكو من عدم وجود موضع يسند اليه راسه في حين كانت للثعالب او جربها وللطيور اعشاشها) (١) فلنقل ان وقت الدكتور كريسن (٢) يسوى ثلاثمائة وخمسين باونسا سنويا (٣) انتقد هذه الصيغة . وان شككت فسي عدالتها فبين بالباونات والدولارات والفرنكات والماركات ، كم يجب ان تبلغ اجورها الزمنية النسبية . قد تكون اجابتك كالاتي : ان المسألة في منتهى قلة الذوق ، وانك تستنكف عن الجواب . غير انك لا تقوى على الاعتراض اذا سئلت كم دقيقة من وقت مجلد كسب تسوى ساعتان من وقت فلكي ؟

التوزيع الحيوي

انك بالاخير مرغم على طرح السؤال الذي كان يجدر بك طرحه

١ - متى : ف ٨ .

٢ - طبيب انكليزي نقل فيه حكم الموت شتقا بينهم قتله امراته السليطة اللسان .

٣ - لا شك ان شو لم يكن ينسحب امتلته من هذه الاسماء بصورة اعتباطية وانما كان له غرضه الخاص ويتضح ذلك من الدائرة الواسعة التي تضم هؤلاء الاشخاص المختلفي المشارب والاحوال والجنسيات والازمان ولذلك حاولنا جهدنا في ان نقدم للقارئ العربي تعريفا بكل شخص ليتبين رأي المؤلف وهدفه .

من البداية وهو «لاي سبب تعطي الرء. دخلا؟» من الواضح انك تعطيه دخلا لتبقيه حيا . ولما كان جليا بأن الشرط الاول الذي يجب ان يتوفر ليبقى حيا غير مستبعد من شخص آخر ، هو ان يقوم بانتاج ما يعادل تكاليف بقائه حيا . ولذلك كان لنا ملء الحق في ارغامه على الامتناع عن البطالة ولنا ان نستعمل اية وسيلة نرأياها لنرغمه على الامتناع عن القتل والحرق والتزوير او ايسة جريمة أخرى . ان اسخف ما يمكن عمله معه هو ان لا نعمل ! اعني ان نكون في تعاملنا معه عاطلين مكسالىن غلاظا بقدر ما يكون هو في تعامله معنا . حتى لو ضمنا له عملا بدلا من بنائنا كسل النظام الصناعي على موجات متعاقبة من العمل المتناقض المنهك بما يعقبها من مستنقعات بطالة كما نحن عليه الآن فعلينا ان ننكر عليه انكارا باتا البديل لعدم قيامه بالعمل . لان ذلك سيؤدي به وبأولاده (ان كان معيلا) الى الفقر . ان الفقراء هم سرطان ينخر جسم الثروة العامة ويكلفون اكثر بكثير مما لو اعطسوا رواتب قاعدية كبيرة باختيارهم فئة ساقطة لا يرجى لها صلاح . كان يسوع اكثر ادراكا من ان يقترح شيئا من هذا القبيل . فقد قال تلاميذه : اتعملون لاجل المحبة فسي حير تدعون الآخرين يستضيفونكم ويطعمونكم ويكسونكم محبة بكم او مجانا بدون مقابل» كما نعتبر عنها في ايماننا هذه . ان كل التجارب البشرية وكل مطعم انساني طبيعي فما لم يعد مصطبغا بعد بصففة التجارة ، يشير الى ان هذا ، هو الطريق السوي قال اليونانيون : «إضمن أولا دخلا مستقلا ، ثم مارس الفضيلة» وكلنا يكافح للفوز بدخل مستقل ، وكلنا يعلم بما علم يسوع وهو لو كان علينا ان نهتم بما سنأكل او ما سنشرب شدا فيغدو من المحال ان نفكر في اشياء اسمى من ذيتك الشيشين . اي ان نعيش عيشة اعلى من حيوان الخلد الذي كانت حياته من بدنها حتى خاتمتها ، بحثا مستمرا مجنونا عن الطعام . والى ان يتم تنظيم المجتمع بشكل

يفقدو معه الخوف من افتقار حاجات الجسد نسيا منسيا كالخوف من الذئاب الذي ساد العواصم الممدنة - فلن نحظى بحياة اجتماعية كريمة قط . وفي الواقع ان محاسن تسويتنا هذه كلها تكمن في انها تنقل حفنة منا من هذا الخوف . ولكن لما كان الخلاص من الخوف يطبق شر تطبيق واسخفه ، حتى انه يجعل حفنة من المفضلين طفيليين على الآخرين فهم مبتلون بالتفسخ ، ويبدو ان التفسخ هو العقوبة البيولوجية المحتومة التامة للطفيليين . انهم يشيعون الفساد في الثقافة العامة وفي سياسة الدولة بدل مساهمتهم المجدية فيهما . وان بطالتهم المفرطة لهي مضره بمقدار ما كان كدح الكادحين المفرط مضرا . وعلى كل فالحكممة المستخلصة من هذا واضحة : ان مشكلتي المجتمع المنظم الاساسيتين هما : كيف تنتج في المجتمع حاجيات تكفي كل اعضائه . وكيف تقطع دابر سرقة العاطلين هذه الحاجات ، اولئك العاطلون الذين يجب عزلهم عزلا تاما ودقيقا ذلك لان حل المشكلة الاولى الظاهر الذي حققه مخترعوننا وكيميائيونا واكبه اخفاق حكامنا الدريع في حل المشكلة الثانية . ان التفاؤل في هذه المسألة بالذات ليس الا تعاميا عن الحقيقة . فأمامنا جميعا حقيقة القتل النابذة تقف مائلة والناس الوحيدون الذين يتشبثون بالوهم الكسول (وهو امكان ايجاد طريقة توزيع عادلة تعمل من تلقاء نفسها) هم اولئك الذين يفرضون تفسيرا ثوري الطابع ، كتأميم الاراضي الذي يزيد بحد ذاته في ضخامة مشكلة كيفية توزيع نتاج الارض على افراد المجتمع كما هو واضح .

التوزيع العادل

عندما تواجه المشكلة بالاخير ، تجد ان ليس لمسألة نسبة توزيع الدخل القومي الا جواب واحد وهو : يجب ان تكون

ححصنا كلها متساوية . فلقد كانت دائما كذلك وستبقى كذلك . صحيح ان دخل اللصوص يتفاوت تفاوتا كبيرا بين لص ولص . كما ينعكس التفاوت ايضا في مداخيل طفيليتهم . ونزول مبقرات لامعة معينة الى ميدان التجارة ، اعطى مداخيل مباشرة استثنائية يشوبها الاستغلال . فالاشخاص الذين يعيشون على بدلات ايجار الارض ورأس المال ، هم اقتصاديا من صنف اولئك اللصوص ذوي المداخيل المتفاوتة تفاوتا غريبا . على ان تفاوت الدخل من فرد الى فرد في الكتلة البشرية الهائلة ، هو غير معروف لانه ليس عمليا بشكل يرئى له ! وكتدبير مجرد لاقتناع نجار ما بأن القاضي الفلاني هو مخلوق جنبل من طبيئته بحيث كان له الحق في فرض عقوبة عليه ، يجب أن نعطي النجار مائة باون سنويا والقاضي خمسة آلاف باون سنويا . ولأن الاجره التي تدفع لنجار ما هي اجرة كل النجارين عادة ، فان راتب هذا القاضي هو راتب كل لقضاة عادة .

طان وخادم السفينة

اذن فلم يعد هناك موضوع للبحث ، أو بالاحرى لم يكن تم موضوع ، إلا الاختلاف بين دخول الطبقات . لقد سبق فكان ثم مساواة اقتصادية فيما بين قباطنة السفن ، ومساواة اقتصادية فيما بين خدم السفن . فما قول يسوع في هذا ؟ لعله سيقول : «إذا كان امتراضك الوحيد ، ان هدف انتاج القبطان وخادم السفينة هو نقل شخصك من ليفربول الى نيويورك او بذل الجهد لاجار اسطول ، او نقل البارود من عبر السفينة الى موضع المدفع فعندئذ يجب عليك ان لا تدفع اكثر من شلن واحد لخادم السفينة لقاء كل باون واحد تدفعه للقبطان الذي كلفت خبراته وتجاربه نفقات اكثر . ولكن لو رغبت زيادة على هذا ، في ان

تفسح للنفسين البشريتين مجالا لتطوير كل قابليتهما ، النفسان اللتان لا يمكننا فصلهما عن القبطان وخادم السفينة (وهما اصل التفرقة فيما بينهما وبين رفاص الماكنة) لتطوير كل ما فيهما من قابلية ، فعندئذ ستجد ان خادم السفينة يكلف اكثر مما يكلف القبطان لان سفن الاول منهما ليس للنفس قدر ما هو سفن القبطان . ومن ثم ينبغي لك ان تعظيه بعد ما تعطى القبطان الا اذا عمدت ان يكون مخلوقا ادنى منزلة» وفي هذه الحالة كان الاسراع بشنقك افضل ! بوصفك من محبذي مبدأ الاجهاض ، وهذا هو موضوع الجدل الرئيس .

الاعتراضات السياسية والبيولوجية على عدم المساواة

على ان هناك اسبابا اخرى للاعتراض على الترتيب الطبقي للدخل اخذت تتراكم شيئا فوق شيء منذ عهد يسوع . هذا الترتيب نراه في السياسة يهزم كل شكل من اشكال الحكم الا نظام حكم الاقلية الفاسد بحكم الواقع . الديمقراطية في اعلى الجمهوريات الحديثة درجة كديمقراطية فرنسا والولايات المتحدة مثلا ، هي وهمٌ وتدجيل . انها تجعل من العدالة والقانون مهزلة . القانون يصبح فهو مجرد اداه لابقاء الفقراء في حالة انقياد واذعان . والمتهمون من العمال يحاكمون لا امام هيئة محلفين تختار من بين زعمائهم وقادتهم بل عن طريق تأمر مستغليهم عليهم . والصحافة هي صحافة الاغنياء ولعنة الفقراء . ومن الخطورة بمكان ان تعلم الناس القراءة . والقسيس يغدو مجرد تكملة للشرطي في آلة حكم يقوم فيها القصر الريفي باضطهاد بيوت القرية . والانكى من هذا كله ان الزواج ينقلب الى مظهر من المظاهر الطبقيّة والتنوع اللامحدود في الاختيار الذي تقدمه الطبيعة للشبان اثناء بحثهم عن شريك حياة ضاقت حدوده حتى انحسرت في قبضة يد من

الاشخاص ذوي دخول متشابهة ، والجمال والصحة لا يعودان الا من قبيل احلام الفنانين فحسب واعلانات دجل وشعوذة بدلا من ان تكون من شروط الحياة السوية . المجتمع لم يعد منقسما على نفسه وحسب بل اصبح خرابا ودمارا في كل ناحية من نواحيه بمعامل التفاوت وعدم المساواة في الدخل بين الطبقات . وما الاستقرار الذي يجده الآن الا بفضل الكتل الضخمة من الناس التي تقف بين أولئك الذين تساوى دخولهم .

يسوع الاقتصادي

ولذلك يبدو ان ما يجب علينا ان نستبدى به هو السراي القائل بان حق الكائن البشري في مدخول ، هو حق مقدس ، حق يتساوى فيه الجميع ، كابتدائنا بالقول ان حق الحياة هو حق مقدس متساو . في الواقع ان الحق الاول هو اعادة تثبيت للحق لثاني انه لمن الجنون ان تسلمني لحبل المتسمة ، لاني قطعت رقبة مامل ميناء بعد ان تشتط وتفسو في معاقبتني لاني تركته يجوع لم ادعه يقوم بتفريغ سفينة اتفق اني كنت مالكا لها . اذ لما كان ضرر الذي يحدثه قطع رقبته اقل بكثير من ضرر بقائه جائعا ، فان المجتمع ذا الادراك الناضج سيحترم قاطع الرقاب ويجعله اكثر من احترامه الرأسمالي . ان الامر بات على درجة كبيرة مفسن الوضوح وفاق الشر حد الاحتمال بحيث ان محاولتنا صفوفود مراقبي المدنية ان لم يقض عليها كما قضي على المحاولات السابقة فعليتنا تنظيم مجتمعا بشكل يكون معه قادرا على القول لكل امرئ في البلاد : « اطمئن وانعم بالا ولا يشغلك سؤال ماذا ستأكل ؟ او اي شيء ستشرب او من اين ستأتي بالكساء » وعندئذ لن يكون لدينا ذلك الجنس من الرجال الذين يضعون قلوبهم في جيوبهم وفي خزائن اموالهم ويودعونها لدى صرافين مثلما قال يسوع :

«حيثما يكون كنزك هناك يكون قلبك» ولهذا أوصى بأن لا نجعل النقود كنوزنا وأوجب علينا أن نتخذ الخطوات اللازمة لننمسوّد أنفسنا على عدم الاكتراث بها مطلقا . وأن نحرر قلوبنا ونعدّها لغايات اسمى من جمع المال . وبعبارة أخرى أن نكون جميعا كرماء الخلق شرفاء نهتم برعاية بلادنا ، لأن بلادنا نرعانا بدلا من أن نبقي على أولئك السفلة المتاجرين الذين يقدمون على كل شيء وأي شيء في سبيل المال ، أو أن نبيع أنفسنا وأجسامنا بالباون والانش بعد تبديدنا نصف يوم ونحن نساوم على السر . يجب عليك حتى (سواء اعتبرت يسوع إلها أم بشرا) أن تقر بأنه كان اقتصاديسا وسياسيا من الطراز الاول .

يسوع البايولوجي

وكان أيضا كما سنرى - بايولوجيا من الطراز الاول . لقد اقتضى قرن ونصف قرن من الزمان ليقنعنا الوعاظ التطوريون ابتداء من بوفون وغوتيه حتى بطلر وبرجسون بأننا وأبائنا واحد . وأنه لما كان ملكوت الله فينا ، فلا حاجة بنا الى السعي بحثا عنه والهناف «ها هو هنا !» ، «ها هو هناك !» وأن (الله) ليس صورة شخص متعال في رداء ابيض كما توضح لنا صورته في كتاب توراة الاسرة . وإنما هو روح ، يتقدم من خلالها نحو فيض متزايد من فيوض الحياة . ونحن المصاييح التي يشع منها ضياء الدنيا واننا بمختصر القول آلهة وان كنا نموت كالبشر . وكل هذا هو الآن صحيح لا شائبة فيه بايولوجيا وسايكولوجيسا . وان مجهودات اصحاب مذهب الانتخاب الطبيعي National Selectionists أمثال فايسمان لجعل سنة النشوء والارتقاء مجرد عمل تلقائي ، لم تمس مبدأ يسوع بضرر ، وأنه كانت قد اودت باللاهوتيين الذين ادركوا (الله) بوصفه قطبي مغناطيس يجمع اليه البشر والملائكة كما

يجمع اللورد روتشيلد انواع الجاموس والنعام الاسترالي في «ترنك» .

المال هو القابلة المولدة للشيوعية العلمية

قد يسأل احد القراء البسطاء هنا ، لماذا لا نلجأ الى الشيوعية كما اشار به علينا الرسل ؟ ان ذلك قد يكون تدبيراً عملياً ممتازاً في قرية الانتاج فيها قاصر على حاجات بسيطة بدائية تعرضها الطبيعة على كل البشر بحد سواء . نحن نعلم ان الناس بحاجة الى خبز واحذية وافهم لا يستطيعون انتظاراً لها ، فهم ينشدونها ويدفعون اثمانها . لكن عندما تتقدم المدنية الى الحد الذي تبدأ تنتج سلعا لا يرى المرء نفسه في حاجة ماسة اليها ، وقد لا تكون موضع رغبة او هدف استعمال الا لطائفة معينة من الناس ، فمن الضروري ان يكون الافراد قادرين على شراء اشياء صنعت بناء طلبهم بضمن التكاليف . ان تأمين الخبز للجميع عمل سليم لا عليه لان الجميع يريدون الخبز والجميع يأكلونه . لكن من جهة والسخف ان يؤمن للجميع ميكروسكوبات وابواق ، ليفة وصوالجة البولو وانايب اختبار . لان تسعة اعشار المنتجة ستظل بضاعة باثرة كاسدة لان تسعة اعشار السكان يحتاجون الى هذه الاشياء سيحتجون على تزويدهم بها بما مطلقا . ان لدينا آلة ثمينة لا يستغنى عنها تسمى «د» وهي وسيلة تمكّن كل فرد من الايصاء بعمل اشياء سه يرغب فيها ويدفع ثمنها خلافاً للاشياء التي لا مناص ستهلاكها ان اراد البقاء حيا . وبالإضافة الى الاشياء التي لة على ان يمتلكها ويستعملها شاء ذلك ام أبى ، كالثياب ، الوقائية الصحية والجوش والاساطيل في المجتمعات حيث تعادل اقرب الطلبات لصنع المواد حتى يمكن التكهّن د التي يصل اليها استهلاكها الى اقل درجة من الخطأ .

وبعد قليل من الممارسة ينظر الى الاشتراكية المباشرة (خذ ما تريد دون ان تدفع) كما ينظر اليها شخصيات كتاب «أنباء لم ترد من اي مكان» (١) لوليام موريس، لا باعتبارها سهلة التطبيق وحسب، بل اقتصادية للغاية ، والى الحد الذي يعتبر اليوم من رابع المستحيلات . ان الرياضيين والعازفين والاطباء والبايولوجيين سيحصلون اذ ذاك على الادوات التي يحتاجونها بالسهولة التي يحصلون بها على خبرهم . او كما هو الحال في الوقت الحاضر. ستبذل طرقتهم وبضائع شوارعهم وجسورهم بالنور ، ولن يعترض الاسم عندئذ لمساهمته في الاتفاق على صنع (السرنايات) (٢) العامة عندما لا يصر العازف على عدم المساهمة في الاتفاق على (سماعات الصم) . هناك قضايا معينة (كالراديو) ينخفض عليها الطلب الى مجرد عدد محدود من رجال المختبرات ، فيكون من الضروري ان تساهم حاليا وعلى اية حال ، المجتمعات كافة بها، لان الثمن يفوق طاقة اي فرد عامل . لكن حتى عندما يفسح اقصى المجالات لتوسيع نطاق الشيوعية (مما يبدو اليوم فهو حديث خرافة) (٣) . فستبقى دائما ولفترة طويلة من الزمن الآتي ، نواح من العرض والطلب فيها يحتاج الناس الى استعمال النقود او الى الضمان الشخصي ولاجل ذلك يجب ان تكون لديهم دخول شخصية . ان السفر الى بلد اجنبي هو مثال واضح لذلك . ونحسن ما نزال بعيدين جدا حتى عن الشيوعية القومية (٤) . وربما ترتب علينا

١ - هو الاسم الذي اخترعه المؤلف لبلاد خيالية ، متالية ادى تطبيق النظام الاشتراكي فيها الى نشر السلام والسعادة بين سكانها .

٢ - السرناي هي آلة موسيقية نفخية من قبيل الناي والمزمار .

٣ - بعد سنتين من هذا القول انفجرت ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا .

٤ - نطلق (الشيوعية القومية) فاصر على امة او شعب لا اكثر ، وهي اضيق

ان نحقق تقدما كبيرا في (الشيوعية المحلية) ، كان يصبح في وسع رجل من مانشستر السفر الى لندن والبقاء يوما واحدا دون ان يأخذ معه اي مبلغ من المال . ان الشكل العملي الحديث لاشتراكية يسوع هو الآن والحالة هذه ، التوزيع المتساوي لفائض الدخل القومي الذي لا تمتصه الشيوعية البسيطة البدائية .

لا تدين !

عند التصدي الى الجريمة والاسرة فجد الفكرة السائسة والتجارب الحديثة لم تلق ضوء جديدا على آراء يسوع . وعندما سنحت لسويفت (١) فرصة تصوير فساد مدينتنا بتنظيم قائمة بتصنيف انواع السفلة والافراد التي تنتجها تلك المدينة ، فانك تراه دوما يعطي (القضاة) موصفا متميزا عن اولئك الذين يحاكمون امامهم . وفي احدى حكايات مستر غلبرت جسترنون (٢) تجد البطل قاضيا ينظر في دعوى جنائية ، فيبلغ به شعوره بسخافة ركزه ، وبمدى الشر الكامن في الامور التي تدفعه تلك السخافة الى عملها ، الحد الذي جعله ينسزع طيلسان القضاء فورا ، الخروج الى الدنيا ليحيا حياة انسان شريف بدلا من حياة صنم يظ غليظ القلب . كان ثم ايضا دعوة تتسم بالغباء المجرد عسن

طبعا من (الشيوعية الاممية) اما (الشيوعية المحلية) فهو يقصد فيها شيوعية المدينة او القرية او اي مجتمع ضمن الشعب او الامة .

١ - (١٦٦٧ - ١٧٤٥) قائد انكليزي وقصصي اشتهر بكتابه «رحلات هوليدن» وهي حكايات انتقادية سياسية رمزية .

٢ - القصود قصة «مغامرات الميجر براون الهائلة» التي ألفها Gilbert Keith Chesterton (١٨٧٠ - ١٩٣٦) .

الروح عرفت باسم المذهب الجبري تمثل الانسان كائنا ميتا
يؤرجحه ذات اليمين وذات الشمال محيطه وظروفه وسابسق
احدائه وما الى ذلك مما يذكرنا بأن هناك حداً معيناً لعمسدد
«الاطوال» التي يستطيع الانسان اضافتها الى كيانه الجسدي او
الروحي . وانه لن الغباء بل من القسوة ان تعذب انساناً طوله
خمس أقدام لعجزه عن قطف نمرة من شجرة هي ضمن امكانية
اناس متوسطي القامة . ولقد عرفت شخصيا قضية تتعلق بطفلة
مسكينة عوقبت بالضرب لانها عجزت عن قراءة عقربي الساعة بعد
ان شرح لها عمل ارقام الساعة ودورانها شرحا مفصلاً ثم تبين
ان العلة في عجزها عن ذلك ، هي اصابتها بقصر البصر ، فتعذر
عليها قراءة الارقام . هذه الصورة هي صورة مطابقة للسخر
والمظالم التي يقودنا اليها مبدأ الارادة الحرة التي هي الصنو الغبي
لمبدأ الارادة المسيرة . واما الفكرة القائلة بأن الانسان يمكن ان
يكون صالحا وان عليك ان تزوده بحافز اضافي قوي للصالح ،
بأن تعذبه عندما يقدم على عمل سيئ فانها سرعان ما ستقلب الى
سخرافة ان لم يحصر تطبيقها بالحدود التي وضعتها الطبيعة للضبط
النفسي بالنسبة الى معظمنا . ليس هناك من بإمكانه ان يفترض
ارغام رجل يكره الموسيقى او كان خلواً من المؤهلات الرياضية -
على ضغط كل الحان سمفونيات بيتهوفن او ان يحفظ (تكملة)
مؤلف نيوتن عن التفاضل والتكامل تحت تهديده بعقوبة الموت !

حدود الارادة الحرة

وبناء على ذلك فمن قوانيننا (وهي ليست مجرد ادوات
اضطهاد وانما تهدف الى المحافظة على كيانات المستبدين بحجة
سيادة القانون) ما يمكن اطاعته عن طريق استعمال درجة اعتيادية
جداً من قوة التعقل وضبط النفس . فمعظم النساء والرجال

يستطيع احتمال التبرّم الاعتيادي بالحياة ، والخيبة منها دون ان يرتكبوا اعتداءات قتّالة . ولذلك هم يستخلصون مبدأ وهو ان اي شخص يستطيع ان يصد نفسه عن ارتكاب مثل هذه الاعتداءات ان شاءت او شاء ذلك ، ثم باشرت او باشر بتعزيز ضبط النفس بالتهديد وبالعقاب الصارم . الا انهم في هذا يركبون متن الشطط . هناك فريق من البشر يملك قوى فكرية وجسدية عظيمة . الا انهم يعجزون عن كبح جماح هياجهم الذي تثيره نكبة بسيطة ، عجز يفوق عجز كلب عن تمالك نفسه من الوثوب اذا قرص قرصة موجهة مفاجئة . انك ترى الناس وهم ثاقرون يرمي بعضهم بعضا بالسكاكين وشموع الكافور لنزاع نشب فيما بينهم على مائدة عشاء . وتجدر رجالا صدر بحفهم عدد من احكام السجن بالاشغال الشاقة بسبب مشاجرات قتّالة ، لا يترددون في يوم اطلاق سراحهم ، من الامساك بزوجاتهم وقذفهن تحت عجلات النقل لكلمة تفوهن بها ازعجتهم . وليس عندنا فحسب اناس يعجزون عن مقاومة فرصة سرقة تعنّ لهم اشباعا لحاجاتهم ، بل لدينا ايضا اناس فيهم جنون السرقة (كليتومانيا) يسرقون دون ان تدفعهم حاجة الى الاشياء التي يسرقونها . ان اللصوصية تجتذب بعض الناس كما تجتذب الملاحة بعض الصبيان . فكم بين الناس المحترمين يقوى تحذير اطبايهم والدروس الماضية على ردعهم وكفهم عن اكل وشرب اكثر مما يصلح لهم ؟ صحيح انه يوجد بين القادرين على ضبط النفس والدين لا يردعهم رادع ، وسط ضيق من المتمارضين خلقيا يمكن ان يرتدعوا ويرجعوا عن غيهم بالخوف من العواقب . ولكن من العبث وعدم الجدوى الابقاء على نظام بغيض يقضي بإساءة معاملة المجرمين ، اساءة حاكمة عمديسة مدلة كثيرة التكاليف في سبيل هذه القضايا الهامشية ليس غير ! ان مبدأ الجبر او الارادة المسيطرة هو مبدأ صالح التطبيق الى درجة كبيرة في مجال المعالجة العملية . والناس الذين لا يملكون

من ضبط النفس ما يكفيهم للاغراض الاجتماعية قد تفصف حياتهم قصفا ، او يؤدي الامر بهم الى مستشفى الامراض العقلية بعد دراسة حالتهم والتأكد من امكان شفائهم . اما تعذيبهم ثم الفخر بالفضيلة على حسابهم فهذه هي البربرية والسخافة بعينها . وكل رغبة في ممارستها هو قسوة وحقد أعمى . ومع ان القسسوة والحقد الأعمى هما من الطبائع البشرية على الأقل — عندما يعلنان للملأ ويمارسان على رؤوس الاشهاد . الا انهما يبدوان في غاية القبح والفظاظة عندما يتسربلان برداء العدالة . وهذا ما حدا على اغلب ظني ، بإيزابلا شاكسبير (١) الى نائب القاضي انجلو . وهو نفسه ما حدا بسويغت ايضا الى ان يخصص للفضاة اشد زوايا جهنم حرارة ونارا . وهذا الذي حدا ببسوع طبعاً الى القول (لا تدبثوا لئلا تدانوا) وقوله ايضا «من سمع كلامي ولم يؤمن به فليست انا السدي أدينه . لان هناك من يدبثه» واعني به الأب الذي هو معه واحد .

عندما يسلب ما شيء نحن بصورة عامة نعود الى قانون الجزاء من غير ان نفكر بأنه لو كان قانون الجزاء هذا فعلاً لمسا سلبنا . وهذا ما ندفعنا ويديننا بروح الانتقام . لست بحاجة الى التفصيل في هذه المناظرة ، كسر مما فعلت الآن لاني عالج الموضوع معالجة وافية في محل آخر . على اني اريد الإشارة الى اننا بقينا منذ اشار علينا يسوع بأن لا نحاكم ولا نعاقب ، مستمرين في المحاكمات وفرض العقوبات . واني لانسحق

١ — بطة مسرحية (العين بالعين والسر بالسر) Measure for Measure

وشو يشير الى مشهد في المسرحية تقوم ايزابلا وهي متكررة برداء المحامي بالدفاع عن اخيها الذي وقع تحت طائلة غضب انجلو القاضي التزمت ظاهراً والعاسق باطناً . وكان على وشك ان يفرض عليه عقوبة الموت .

ايا كان باقامة حجة تفنعتني بان امر العالم قد يكون افضل ممسا
سيكون عليه وهو خال من القاضي والسجن وساحات الاعدام على
طول الخط . اثنا بعبارة بسيطة اضفنا الى بؤس الجريمة بؤس
العقوبة وزدنا على قسوة المجرم قسوة الحاكم . لقد تناولنسا
الرجل الشرير وجعلناه اكثر سراً بتعذيبه وتحقيره وجعلنا انفسنا
في الوقت ذاته بشراً اسوأ منه . الامر يبدو وليس فيه شيء من
المنطق اليس كذلك ؟ انه لاهون كثيراً قتل المجرم بالطف ما يمكن
تنفيذ عملية القتل ، او وسمه بميسم ثم تركه لضميره ، او معاملته
معاملة المريض او من خولط في عقله كما تعاملت انت الآن (لم يتم
- والشيء بالشيء يذكر - تحرير المجنون من السلاسل والقيود
الا في السنوات الاخيرة) هذا على ما اراه - الشكل الذي يمكن
به وضع تعاليم يسوع موضع التطبيق .

الفصل الثامن

يسوع في الزواج والاسرة

عندما نأتي الى الزواج والاسرة نجد يسوع يعترض نفس الاعتراض على المبدأ القائل ان ملكية الفرد للمخلوقات البشرية هي الاصل في الزوجية كما هي الاصل في حياة الفرد للثروة . يقول ان الرجل النزوج يحاول اسعاد امرأته . والمرأة المتزوجة تحاول اسعاد بعلمها بدلا من ان يقوموا (بعمل الله) . وهذه نسخة ثانية من «حيثما يكون كنزك هناك يكون قلبك» . بعد مرور ثمانية عشر قرنا نجد شخصا آخر يختلف عن يسوع اختلافا بيئنا هو تاليران (١) يدعو الدعوة نفسها حيث يقول : «المتزوج صاحب

١ - Charles Maurice Talleyrand (١٧٥٤ - ١٨٣٨) سياسي فرنسي خدم في عهد الجمهورية وبعهد نابليون والبيديون .

الأسرة ، يقدم على كل شيء في سبيل المال». ومع ان هذا القول ليس دقيقا من الناحية العلمية الا ان فيه من الصحة ما يكفي ليكون اعراضا اخلاقيا على الزواج . فما دام للرجل الحق في المخاطرة بحياته او بمدار رزقه في سبيل مثله واهدافه ، فهو لا يحتاج الى اكثر من الشجاعة والعقيدة لجعل صحة القول هذه مما لا مجال للطعن فيها . الا انه يقضي على حقه هذا عندما يتزوج . لقد احتاج الامر الى ثورة لانقاذ فاغتر (١) من موعد الحضور الى مجلس القضاء في درسدن ولم تصفح زوجته عنقه قط لاطهار السرور والشعور بالحرية عندما اخطأ ذلك الموعد فقفد بها الى احضان الفقر . وربما كان ميلليه (٢) سيبقسى مسمرا في رسم صور العاريات المثيرة الى آخر ساعة من حياته لو لم تكن زوجه من ذوي الاتجاهات البطوليّة هي نفسها . ان النساء يخضعن للاستعباد ويستسلمن للعهر في سبيل اولادهن وابويهن . وتلك حالة لا تقوى اية امرأة مثيرة من هذه الروابط على تحملها .

تلك هي البداية والنهاية لاعتراض يسوع على روابط الزيجة والأسرة . وهذا هو التفسير المعقول عن خلو السماء من الزواج والمتزوجين ، وليس لدينا سبب للافتراض بأنه لم يكن يعني قوله هذا . انه لم يقترح العزوبة قاعدة اساسية في الحياه فهو ليس بهذا الغباء . ولا كان يعتقد — كما اعتقد بولس ان نهاية الحياه وشيكة لذلك فلا حاجة تدعو الى تكاثر البشر ، ولا بد انه كان

١ — ما يشير اليه هو حادثه معينة وقعت لهذا الموسيقار العظيم بخصوص دعوى مالية خسرها .

٢ — Millet (١٨١٤ — ١٨٧٥) رسام فرنسي اشتهر برسمه الفلاحين والحقول .

يقصد وجوب استمرار الجنس البشري بدون ان يتقسم الولاء الذي يدين به البشر لله الذي هو مع الرجال والنساء معا في ذات نفسه . وهذا يشير المشكلة العملية : كيف تضمن الحرية الروحانية ومكانة القس والراهب .

ان لوثر القس لم يحل المشكلة برواجه من راهبة ، بل ادلى عمله هذا فحسب بشهادة عملية مقنعة للغاية هي ان العزوبة اعظم خيبة واخفاقا من الزواج .

لماذا بقي يسوع عازبا ولم يتزوج ؟

المظاهر كلها تشير الى ان المشكلة لا تضائق الا اناسا مستثنين ، ان النساء الاعتياديات تماما المتزوجات برجال اعتياديين تماما يجب ان لا يشعروا بأي تقييد : فالقيد ليس قاصرا على تركهم احرارا يفعلون ما شاؤوا بل ان القيد نفسه هو الذي يسهل عليهم كثيرا استجدائهم لانفسهم . فعندهم ان هجوما على الزواج ليس ضربة توجه في سبيل الدفاع عن حريتهم بل ضربة تنزل بحقوقهم وامتيازاتهم . وقد يتوقع المرء انهم لن يقفوا عند الشك الحماسي في تعاليم يسوع هنا بل يتسადون الى الاعتراض الشديد حصول بقاءه عازبا وعزوفه عن الزواج هو بالذات . حتى اولئك الذين يعتبرونه الها نزل عن عرشه السماوي متقمصا جسم بشر لفترة من الزمن ارى من حقهم القول ان بشريته بقيت غير كاملة في اهم نقطة وهي بقاءه عازبا . الا ان الحقائق هي على طرفي نقيض من هذا . فمجرد التفكير بيسوع المتزوج ، يعتبر لدى معظم المؤمنين الاعتياديين من قبيل الكفر والتجديف حتى عند الذين لا يرون يسوع شخصية فائقة للطبيعة وانما هو نبي فحسب مثلما كان محمد نبيا . فهؤلاء يشعرون ان هنالك شيئا اكثر مهابة وجلالا في عزوبة يسوع من منظر محمد وهو مستلق على ارض داره ساهما ،

بينما اجتمعت نساؤه حوله يتعاركن ويتنافسن على استحواذه .
اننا لا نعجب عندما دعا يسوع ابني زبدي ليلتحقا به دون ان يدعو
معهما اباهما ، ولا نعجب اذ نجد التلاميذ كلهم كيسوع قد
تخلصوا من مشاكل الاسرة . والامر ينضج من نفاد صبره عندما
كان الناس يعتدرون عن الانضمام اليه بسبب مجالس عسراء
اقربائهم او عندما يفترضون بأن اول الواجبات هو واجبه تجاه امه
فواضح انه وجد قيود الاسرة والتعلق بالاهل مما يعترض سبيله
في كل منعطف حتى اصبح مقتنعا بالآخر الا احسد من البشر
يستطيع ان يتبع نوره الداخلي الا بعد ان يتحرر من تلك
الالتزامات . ان انتفاء اي احتجاج ضد هذا يميل بنا الى القول ان
ليس هناك اناس عاديون في قضية الزواج وان كل واحد هو في
اعماق قلبه مسيحي صادق من الناحية الجنسية .

عدم ثبات الفريزة الجنسية

الا ان المشكلة كذلك ليست من السهولة بمكان . ففريزة
الجنس هي غريزة في منتهى الدهاء او التعقيد وان معشر ابناء
البشر لا يعرفون حرية الضمير ، ولا يهتمون كثيرا به وهو ما كان
يسوع يفكر فيه . ويكاد يكون اهتمامهم البالغ حد الهوس ،
مقصورا على الجنس وهو الذي لم يقل عنه يسوع شيئا . وفي
طبائعنا الجنسية يتجاذبنا الميل الذي لا يقاوم الى جانب القرف
الطاغي والاشمئزاز . ان لدينا عاطفتين جديدتين مستبدتين :
العفة والغلمة . واننا نغدو مجانيين في ركضنا وراء الجنس ،
كما نغدو مجانيين ايضا عند اضطهادنا الجنس ! ان لم نشبع
رغائبنا ونقضي لبائتنا فالجنس ضائع . وان لم نكبح جماح هذه
الرغبات فنحن ندمر انفسنا . وهكذا ادى الامر بنا الى استنباط
شرائع الزواج التي تكفل في الوقت نفسه فرصا لاسباع الجنس

ووضع ما لا يحصى من العقبات امامه . واخترع ما يضعه نسي مصاف الرذيلة . ما يحلله وما يحرمه ، ما يجعله عيبا وما يجعله من قبل الفضيلة . وواضح انه من العبث البحث عن قواعد اثبات لمثل هذه السنن . وبالإصلاح المستمر واعادة النظر ، وبالمرونة الكبيرة في تطبيق احكام تلك الشرائع فحسب يمكن الوصول الى نتيجة مقبولة . ولا حاجة بي هنا الى تكرار اجراء الفحص الطويل الدقيق على اولئك الذين صدرت بهم مسرحيتي (المرسان) وانما يهمني هنا آراء يسوع في الموضوع . ولا حل نفهم موقف الناس منها ارى من الضروري ان لا نتخذ من الاستحسان العام لقرار يسوع البقاء على حياة العزوبة كذريعة ومثابة لتعزيز وجهات نظره وتقويتها . اننا من الموضوع في حالة ارتباك ليس الا . على ان جانبنا من الاضطراب يعزى الى استنتاجنا ان يسوع الذي كان عازبا بل منكمشا حتى من فكرة ولادته الطبيعية ، تسبب تشبها عنيدا بقداسة الشريعة التي تؤمن مخرجا من العزوبة وخلاصا .

في السراء وفي الضراء

وعلى اية حال لم يعبر يسوع في موضوع الزواج عن رأي فيه تعقيد . ولم يكن اعتراضه عليه كبيرا بل في منتهى البساطة كما رأينا . لقد ادرك بأن لا احد يستطيع ان يعيش الحياة السامية الا اذا كان المال والحب والجنس مما يمكن الحصول عليه دون التضحية بتلك الحياة . وقد رأى ان تأثير الزواج كما كان موجودا عند اليهود (لا يزال موجودا ايضا) هو الذي يجعل الزواجين يضحيان بكل اعتبار ومبدأ سام ليطعم احدهما الآخر ويعمل على اسعاده ، واصوا ما في ذلك ان هذه الحالة الخطرة المتنافسة للطبيعة في الزواج تشتد سوءا بدلا من ان تتحسن بمدى تحسن سلوك الزوجين عموما . ان الزوج الاناني الذي لا يرى في امراته

أكثر من أمة رقيقة والزواج الانانية التي لا ترى في بعلمها أكثر من كبش فداء وكادح في سبيل الخبز ، لا يصددهما عن المفاسسة الروحية أو أية مفامرة أخرى أي خوف من تأثير لها على سعادة وراحة رفيق العمر . والازواج لا يقيدون زوجاتهن الى المهمل ولا يقصرونهن على محيط الطبخ عندما يجب ان تكون أقدامهن الجميلة فوق الجبال . لكن عندما يفقدو الناس فهم أكثر حانا وأيقظ ضميرا وأكثر استعدادا لحمل الجزء الأكبر من العبء (بمعنى ان القوي سيدعن للضعيف . وان البطيء يحتجز السريع) فان الزواج يصبح عقبة لا تطاق في سبيل ارتقاء الفرد . وهذا هو السبب في ان الثورة ضد الزواج التي كان يسوع اول المبشرين بها ، تكرر علينا راجعه عندما ترفع الحضارة مسنوى الواجبات الزوجية ودوابها العاطفية وفي الوقت نفسه توجد عند حرية الفرد حاجة أكبر للسعي نحو المزيد من الرقي .

العلاج

هذا هو وجه واحد فقط من وجوه الزواج لحسن الحظ وهنا يعن لك السؤال التالي : يمكنك استئصال شأفة هذا الوجه؟ والجواب مطمئن ومريح : «طبعاً ذلك ممكن» ففي طبيعة الاشياء ، ليس هناك مانع بشري يمنع اعتماد الزوجين أحدهما على الآخر اقتصاديا . ان الشيوعية التي بثّر بها يسوع تتخلص من هذه العقبة تماما . وهي كما رأينا شيوعية ممكنة تماما لا مفر منها. ان كان من الواجب علينا انقاذ مدنيتنا من الانهيار وبالاكتفاء الاقتصادي ستتلاشى قوة المزايم الشائنة التي تستمد شرعيتها الحققة من الضغط الاقتصادي الذي يكمن وراءها . عندما يسمح الرجل لاسرائه بأن تصرفه عن خير عمل يستطيع القيام به فتحمله على بيع نفسه بأعلى ثمن تجاري يمكن الفوز به ، وعندما يسمح

الرجل لامراته بأن توقعه في احبولة روتين اجتماعي من شأنه ان يضره ويرهقه او عندما تشده بشريط مئزرها في وقت كسان بحاجة الى تلك الوحدة التي هي حق من اقدس حقوق البشر بين فترة واخرى فانه يفعل ذلك لانه لا يملك الحق في ان يفسر ض عليها مقاييس شاذة عن العرف والعادات اللااجتماعية ولان هذه الاحوال بضمونها المختلفة قد اولست عادة تكبيل القرينين المتزوجين احدهما بالآخر حتى بلغ من شيوعها ان الناس المتزوجين يصبحون هدفا لسخرية فظة عندما يعمد عشراؤهم الى كسر ذلك القيد ، وعندما يحكم الابوان على امراة بالانتظار في حالة مسن التعطل التام وتبديد الوقت حتى ياتيها زوج في حين تدعوهمسا غرائزها الاجتماعية السليمة الى البحث عن مهنة وعمل فسان انكالها الاقتصادي عليهم هو الذي يجعل طغيانهم مؤثرا .

ما يعزى من حجة الزواج

وهكذا ، فمع اننا نغالي عندما نقول بان كل ما هو كرية في الزواج وفي حياة الاسرة سينتج الشيوعية عند معالجته ، يمكن القول بان هذا النظام ينجح في شفاء ما عارضه يسوع من تلك الشرائع والسنن . انه لم يقم بدراسة مستفيضة لتلك الشرائع لكنه عبّر عن شكواه بشعور طاغ ، اعني الشكوى التي بلغت من العمق حداً انها لم تراع اي اعتبار للجانب الآخر من الموضوع حتى لكانها غبار في كفة ميزان . ومن الواضح ان نم اعتبارات وجيهة جدا حملت تاليران على القول بان المتزوج ورب العائلة قمين بعمل اي شيء ، فقد قصد (بأي شيء) كل شيء . الا ان متفائلا قد يقول (والى جانبه نصف الحقيقة بالضبط) : ان المتزوج جدير بكل ما هو صالح ، وان الزواج يجعل من المتشردين الافاقين مواطنين مثابرين دؤوبين . وان الرجال والنساء مدفوعين بحبهم لشركاء

حياتهم وأطفالهم سيسلكون طريق الفضائل التي يعجز عمن ممارستها فرد لا يشده هذا الرباط . وصحيح أن الكثير جدا من هذه الفضيلة العائلية هي مجرد «انكار ذات» وانكار الذات فسي الواقع ليس من قبيل الفضائل مطلقا . على أن اتباع النور الداخلي مهما بلغت التكاليف هو على الاغلب مسمى ذاتي لا يقل بأي حال من الأحوال عن انكار الذات بكل ما فيه من ضعف وجبن وميول انتحارية . ان ايبسن (١) الذي يأخذ بيدنا الى معالجة المسألة بعزم أشد من عزم يسوع يقف عاجزا عن إيجاد قاعدة ذهبية . فكل من براند وبرغنت انتهى الى نهاية سيئة ومع أن ما أحدثه براند من ضرر لم يرق الى مستوى ما أحدثه هذا الآخر فإنه كان ذا اثر فائق للعادة .

العزوبة ليست بعلاج

فيما اظن ، ينبغي لنا التأمل في اعتراض يسوع على روابط جية والاسرة ، باعتبارها من قبيل المزام التي يدعي التخلص والتحرر من قيودها طائفة معينة من الافراد ، لكونها تعرقل لهم الى درجة لا يطيقونها . وعندما قال لنا يسوع انه يترتب اذا اخترنا طريقه والسير على هديه - ان نترك روابطنا بولية ، فإنه كان يقرر حقيقة من الحقائق . وانك لشري الكاهن اثوليكي ، والاما البوذي ، والفقر الهندي (٢) ومن لف لفهم

١ Henrik Ibsen (١٨٢٨ - ١٩٠٦) مسرحي وشاعر ومفكر نرويجي هاجم مقاييس السلوك الاخلاقي السائد . ومن أهم مسرحياته (براند ، وبرغنت) .
٢ - الاما هو الراهب البوذي من اتباع الديانة البوذية المنتشرة في التبت وجنوب الشرق الأقصى من آسيا والصين على الاخص . و«الفقر» الهندي هو رجل متي نذر نفسه للتجوال والعيش على الصدقات .

من كل طائفة او ملة يقبلون بهذا القول . كذلك تجده مقبولا من ذوي المهن التي تتطلب مجهودا بدنيا وعند كل صنف من المستكشفين النشطين الذين لا يستقر لهم قرار ، وبمختصر القول انك تجده مقبولا عند المغامرين . وأعظم تضحية في الزواج هي تضحية الموقف الذي ينطوي على المغامرة بالحياة وبلاستقرار . ان اولئك الذين يشكون التعب المزمع قد يتلهفون الى الاستقرار . والاستقرار للنفوس القوية المتفتحة هو شكل من اشكال الانتحار .

والآن فالقول عن اية سنّة من السنن بأنها لا تتمشى مع الحياة المفكرة المندفعة المغامرة ، هو اعظم ما يمكن ان يوجه اليها من انتقاص ، بحيث ان جميع التأويلات الاخلاقية لكل الاساقفة والوكلاء لا يمكن ان تعيد انفسنا الى عبوديتها . فيسوع غير المتزوج ويتهوفن غير المتزوج وجان دارك البتول ، والعداري : كلير وثيريز ونايتنكيل يبدون كلهم كما يجب ان يكونوا . فالقول بأن في الفيلسوف المتزوج ما يدعو الى الاستخفاف دوماً ، يغدو قولاً لا مناص منه . ومع هذا فان العازب ما زال موضع استخفاف وسخرية أكثر من المتزوج . والكاهن في قبوله بالبديسل ، اي بالعزوبة ، يجعل من نفسه شخصا عاجزا ، وخير القسس هم من كانوا رجالا علمانيين قبل ان يصبحوا من رجال العالم الآتي . ولكن لما كان نذر التبتل لا يبطل زواجا قائما ، ولما لم يكن بوسع الرجل المتزوج ان ينضوي الى سلك الكهنوت ، فاننا نعود ثانية لنجابه شذوذاً ، وهو ان خير القسس هو ذلك الخليع الذي ثاب الى رشده وتاب . وهكذا يدفع بنا الزواج الذي هو امر لا يطاق بحد ذاته ، الى خيارين كلاهما غير محتمل : والحل العملي هو ان يجعل الفرد مستقلا اقتصاديا عن الزواج والاسرة . ويجعل عقد الزواج سهل الابطال كأي عقد شراكة وبعبارة اخرى الرضائي بالنتائج التي تتجه اليها ببطء تجربة كل من علماء الاجتماع وواضعي القوانين عندنا . وليس هذا مما يعالج شرور الزواج ولا

ان يقتلع بضربة واحدة تقليده الممجوج في الاستئثار بالابدان البشرية بل سيترك الطبيعة حرة لتبتدع علاجاً . وفي التربة الحرة يدوي الجذر ويموت .

ان هذا يسير ويتمشى مع كل آراء يسوع وتعاليمه التي ما زالت ميدان اخذ ورد وكلها تتفق بصورة باتة مع افضل نتاج الفكر الحديث . لقد ابلغنا بما يتوجب علينا عمله فترتب علينا ايجاد سبيل العمل . وما زال معظمنا كما كان معظم معاصري يسوع متطرفين في معارضتنا ومرغمين على السير في هذا النهج بضغط اليم من الظروف ، فنحتج في كل خطوة نخطوها بقولنا لا شيء يرغمنا على السير ، انه لسبيل مضحك ، سبيل شائن ، سبيل لا اخلاقي ، وانه يجب على الطبيعة ان تخرج من نفسها وتعود القهقري حالاً . الا انهم على اية حال مضطرون الى السير وراء تلك الطبيعة ان ارادوا ان تكون للحياة قيمة .

الفصل التاسع

ما بعد الصلب

الا فلنعد الآن الى قصة الرسل لان ما حصل بعد غياب يسوع له دلالة . كان الصلب لسوء الحظ ، نجاحا سياسيا كاملا . واذكر اني احدثت صدمة عنيفة في جريدة دوبرن ديلي اكسبرس التي تتمتع بأكبر منزلة من الاحترام في مسقط رأسي ، عندما وصفت الصلب بهذا الشكل مرة فيما مضى ، ذلك لان عبارتي الصحفية اظهرتني وكأنني أعالج المسألة كما أعالج أية حادثة من الحوادث الاعتيادية ، كمسألة الحكم الذاتي او قانون التأمين الاجتماعي أعني كواقعة حصلت فعلا وان لم يخطر ذلك ببال رئيس التحرير . لا كجزء من العقائد المذهبية او الطقوس البيعية . واني لاكرر عن هذه الواقعة بوصفها وقعت فعلا - انها نجاح كامل لحدث تاريخي كامل الابعاد والمسيحية كعقيدة قائمة بذاتها قتلت بمقتل يسوع فجأة وبصورة نهائية . فقبل ان يبرد جسده في القبر ، او قبل ان يبلغ سماواته (اختر منها ما يخلو لك) قسم

الرسول يجر تماثيله الى الاسفل حتى يلفوا بها المستوى الذي بقي عليه منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا . ويدرك الكفار الاذكياء هذا الامر من فراءتهم رواية صموئيل بنلر الموسومة (الطريق الى كل اللحم) (١) بارشاد الكنب الحديثة وعلى هديها .

الاعاجيب الانتقامية ورجم اسطفانس

خذ الاعاجيب مثلا . فيسوع هو الوحيد من بين منعمي الاعاجيب المسيحيين الذين لم يجر على يده او تذكر له اعجوبة سيئة العقبى او تدميرية او انتقامية الا في بعض الاناجيل التي رفضها جميع المسيحيين . ان الثينة العقيمة (٢) كانت الضحية الوحيدة لسخطه . وكل معجزة من معجزاته في المسائل الحساسة هي اعمال حنان وعطف وبناء . يقول يوحنا انه ابرأ جرح الرجل الذي قطع بطرس (٣) اذنه بسيفه عندما جاؤا لاعتقاله في بستان الزيتون . الا ان من اولي الاعمال التي قام بها الرسول مستمعين بمواهم الخارقة هو قتل رجل تاعس مع قرينته لانهما خدعاها باخفاء جانب من المال وحبسه عن ملكية المجموع كما اصابوا بعض الناس بالعمى او الموت دون تأنيب من ضمير او ندم . لقد اذانبوا لانهم كانوا قد اذنبوا . والحقيقة انهم ابرأوا المرضى واحياوا الموتى تحذوهم كما يظهر روح الدعاية والاعلان وحب الظهور ليس الا . ولم يكن مبدؤهم يحوي شعاعا وقبسا من ذلك النور الذي يظهر

١ - The Way to all Flesh عنوان قصة لسموئيل بنلر طبعته . بتعبد وفاته وهي في الواقع سيرة حياته مع ابيه المتدين الذي وجد في تدينه طفيلانا لم يطقه .

٢ - لوقا : ف ١٢ .

٣ - يوحنا : ف ١٨ .

يسوع واحدا من مخلصي البشر من الائم والدنس . لقد تخطى
الرسل معلمهم ، وعادوا رأسا الى يوحنا المعمدان والى مبدئه
الذي يشترط الندامة والمعمودية لغفران الذنوب اعني «الولادة
الثانية بالماء والروح» . وان اول خطبة القاها بطرس تذيب قلوبنا
بانسانية استهلالها . وهي تأكيد جذاب لمستعصيه بوجوب الوثوق
بصحوته لان الوقت جد مبكر على شكره . الا انه لم يصف شيئا
عن يسوع الى ما قاله فيه قبلا ، الا ذكره بأنه المسيح الذي تنبا
بقدومه الانبياء ، وبانحداره من نسل داود ، واوصى بالايمن
بهذا ، واوجب المعمودية على المؤمنين به . والى هذين الشرطين
اضاف الرسل الآخرون تنديدات لا نهاية لها باليهود لانهم صلبوه ،
وبهديدات بما سيحل بهم من الدمار ان لم يتوبوا ويندموا على ما
اقترفوه ، اعني ان لم ينضموا الى الطائفة التي يقوم الرسل
بانشائها . القى خطيب في مستقبل العمر لا يمكن الصبر عنه ابدا
اسمه اسطفانس خطبة في المجمع رمى المستمعين فيها اولا بالتهمة
المملة التي الصقها بهم التاريخ الاسرائيلي وهو التاريخ الذي كانوا
على اغلب الظن يعرفونه مثلما يعرفه هو . ثم انشا يشتمهم
بعبارات جارحة جدا كقوله «يا غلاظ الرقاب وذوي القلف» .
اخيرا ، بعد ان اضجرهم وأزعجهم الى الحد الذي لم يمسودوا
يطيقون عليه صبرا ، شخص بانظاره الى الأعلى وصاح قائلا انه
يرى السماوات تفتح ابوابها والمسيح واقفا عن يمين الله ، وكان
هذا خارجا عن قابلية احتمال اكثرهم حلما فقدفوا به الى خارج
المدينة وتولوا رجمه حتى قتلوه ، وهذا أسلوب قاس صارم في
اسكات مغرور سمج ثقيل الظل . الا انه عمل انساني يمكن اغتفاره
اذا ما قورن بمقتل حنانيا وسفيرة .

بولس

وفجأة يدخل المسرح بولس العبكري العنيف في عدائيه

للمسيحية . يدخل حارساً ثياب راجمي اسطفانس . انه ليستند
 في اضطهاد المسيحيين حتى يجاوز فيه كل حد معتبرا ذللك
 هواية فضلا عن العمل الذي يرتزق منه وهو نسج الخيام ، وكرهه
 العجيب هذا يسوع الذي لم يفع عليه نظره هو من قبيل الاعراض
 الباثولوجية . انه ذلك النوع من التكوين العصبي والفكري الذي
 يؤدي بالمرض فيه الى الوقوع تحت طفيان نوعين من الرعب
 الهلوسي : رعب الائم ورعب الموت . او ما يمكن تسميتهما بالخوف
 من الجنس والخوف من الحياة . فها هو يسوع بعقله السليم
 وباعلى درجات الحصافة والاتزان ، تراه متحررا تماما من هذين
 الخوفين فيخالط الخطاة غير هيّاب ولا وجل ولا يهتم — على قدر
 معلوماتنا — بما يرى الآخرون في سلوكه اهو ناب ام مستقيم .
 وبهذا ارغمنا على قبوله شخصا خاليا من العيوب ، طاهرا من الائم
 والخطيئة . وحتى لو اعتبرنا ايامه الاخيرة ايام وهم ورؤى بالنسبة
 له ، فقد بدا على اية حال بمظهر مضيئ الى حد بعيد بارتفاعه عن
 شعور الخوف من الموت . ولا بد ان هذا المظهر اربع بولس او
 شاؤول (كما كان يدعى اولا) وفتنه في الوقت نفسه . فالرعب
 دفعه الى اضطهاد المسيحيين اضطهادا لا هواة فيه . والغتون
 كان سببا لرؤيا من اغرب الرؤى التي شاهدها . رؤيا ارتباط
 اسم يسوع المسيح بالفكرة العظيمة التي دأبته كوميض البرق
 الخاطف وهو في طريقه الى دمشق ، وهي فكرة عجزه عن انشاء
 دنيا من الخوفين اللذين يمتلكانه . فضلا عن ان الحركة التي بدأها
 المسيح زودته بنواة لكنيسته الجديدة . كانت فكرة مريضة تلك
 التي لاحت له . ومثلها كانت الصدمة التي خلفتها فيه كما أقر
 هو نفسه فيما بعد . لقد اطفأت نور عينيه فبات أعمى عدة ايام .
 اذ سمع يسوع يناديه من السحاب قائلا «يا بولس لماذا انت
 تضطهدينى ؟» . ان بغضه الطبيعية ب (المعلم) الذي لم يكن للموت
 او للخطيئة اي تأثير من الخوف عليه ، انقلبت الى عبادة شخصية

جنونية له . تلك العبادة التي تتمثل فيها روعة الشيء الجميل منظورا من زاوية ضوء كاذب خالب (١) .

لا يرى مدوّن كتاب (اعمال الرسل) شيئا يلفت النظر في هذا . والخطر الاكبر للهداية الى عقيدة ما في كل العصور كان يكمن في هذا : عندما يتقدم دين العقل الرفيع الى العقل الادنى ، فان العقل الادنى الشاعر بفتنة العقل الرفيع وطفئانه من دون فهم له مع عجز عن الارتفاع الى مستواه ، فما يكون منه الا ان يقوم بجره الى الاسفل حتى يصل به الى مستواه عن طريق الحط من قسده وارثخاص قيمته . منذ سنوات خلت قلت ان اهتداء الانسان الهمجي الى المسيحية ، هو في الواقع اهتداء المسيحية الى الهمجية ، واهتداء بولس ليس اهتداء على الاطلاق . ان الدين الذي رفع اسانا فوق الحطينة والموت ، حوّل بولس الى دين اسلم ملايين الناس الى سلطانهما تسلّيا مطلقا ، بحيث أصبحت طبيعة وجودهم مجرد خوف وغدت الحياة المتدنية انكارا للحياة اصلا . لم يكن في نية بولس قط ان يسلم (يهوديته) او جنسيته الرومانية (للعالم الاشرافي اليسوعي الاخلاقي الجديد) كما اطلق عليه دوبرت آون (٢) . وكارل ماركس نفسه لم يكتف في عصرنا هذا بأخذ الاقتصاد السياسي كما وجدته بل اصر على اعادة بنائه من القعر الى الاعلى بطريقته الخاصة . وبهذا اعطى للأخطاء الجديدة التي كانت تتنامى وتتعاظم فرصة جديدة للتصحيح والحياة . كذلك الامر ببولس فقد أعاد بناء عقيدة الخلاص القديمة (وهي

١ - ف ٨ : اعمال الرسل .

٢ - Robert Owen (١٧٧١ - ١٨٥٨) مصلح اجتماعي انكليزي

ومن اوائل زعماء الحركة النقابية العالمية . اشتهر بكتابه «نظرة جديدة الى المجتمع» .

العقيدة التي حاول يسوع انقاذها منه ومن امثاله فباءت محاولته بالفشل) ، فانتج من جراء ذلك لاهوتا عجيبا ما زال أغرب شيء معروف من نوعه لدينا . ولا كان من التاحية الثقافية عقلانيا رومانيا اصيلا يطرح دائما ما لا يستقيم مع العقل في المسائل الحقيقية لياخذ بسبيل الاشياء غير الحقيقية (المسلم بها استقراريا ومنطقيا مع ذلك) فقد بدأ بانكار الانسان كما هو واختار بدلا مسلما به وهو آدم وهو ما كان يجب ان يحصل في الواقع لدنيا ليست كلها مصابة بالجنون . وعندما سئل «ماذا حل بالبشر السوي ؟» اجاب «آدم هو البشر السوي» وكان جوابه محيِّرا للسذج (لان اسم آدم كان بحسب التقليد اسما للانسان السوي الذي خلق في جنة عدن بالتاكيد) حتى لكأن واعظا في مصرنا هذا قد وصف بأنه مثال فرانكشتاين بريطاني . ثم سماه سمث . وعندها سأل احدهم : «وماذا يقال عن رجل الشارع ؟» فأجيب «سمث هو رجل الشارع» وهذا الشيء هو كثير الحدوث . والواقع ان العالم حافل بهؤلاء الادميين والسمثيين ورجال الشارع والشهوانيين العاديين والاقتصاديين كذلك يعج بالنسوة الانثويات وما السى ذلك . وكل من هؤلاء اطلس (١) خيالي يحمل دنيا خيالية على كتفين وهميتين .

ان قصة جنة عدن تزود آدم بخطيئته الاصلية التي اصابتنا كلنا بلعنة والاثر يبدو سخيفا بوضعه بهذا الشكل السيء . ومع هذا فهو متعلق بشيء له وجود فعلي لا في ضمير بولس وانما فسي ضمائرنا نحن ايضا . ان الخطيئة الاصلية لم تكن بسبب اكل الثمرة المحرمة بل للشعور بالاثم الذي يولده اكلها . ففي الوقت

١ - هو اسم لابن احد العمالقة في الاساطير الافريقية الفايبرة تقول الاسطورة عنه انه عرقب بان يقوم بحمل السماء على كتفيه .

الذي ذاق به آدم وحواء التفاحة وجدا نفسيهما خجلين مسن علاقاتهما الجنسية التي ظلت تبدو لهما قبلها امرا لا غبار عليه . ولا مجال ثم للتغلب على الحقيقة الثابتة وهي ان هذا (الحياء) او (حالة الشعور بالاثم) قد ظلت تلازمنا حتى يومنا هذا ، وانها كانت واحدة من اقوى غرائزنا . ولهذا فان تسليم بولس بأن آدم هو الانسان الطبيعي هو تسليم صحيح من الوجهة البرغماتية (الدراعية) حالفه النجاح . على ان نقطة الضعف في البرغماتية هي ان معظم نظرياتها يحالفها النجاح عندما تصمم انت على انجاحها شريطة ان لا تخلو من ناحية بشرية ولا تناقض الطبيعة الانسانية . ان الهيدونية ستجتاز الاختبار البرغماتي ، فضلا عن الرواقية نفسها . وكل مبدأ اجتماعي سيحالفه النجاح الى حد ما ان لم يكن مبدأ جنونيا صرفا مائة بالمائة . فالاتوقراطية نجحت في روسيا ، والديمقراطية نجحت في امريكا . والاحادية نجحت في فرنسا ، وعبادة الالهة العديدة نجحت في الهند ، والوحدانية نجحت في الاسلام ، و«اللائية» (1) نجحت في انكلترا . ان المفهوم العجيب لآدم الملعون عند بولس الذي مثله يونيان بحاج ينوء ظهره بحمل من الخطايا عظيم ، يماثل الشرط الاساسي للارتقاء الذي ينص على ان الحياة وبضمنها الحياة البشرية، ترتقي باستمرار ، فعلينا والحالة هذه ان نخجل من نفسها ومن حاضرها ومن ماضيها باستمرار . ان حاج يونيان يريد التخلص من حمل خطاياها ، الا انه يريد كذلك ان يبلغ «الضياء الساطع البعيد» وعندما يسقط عنه حمله اخيرا امام ضريح المسيح ، سيجد حخته ناقصة وان اشق تجاربه ما زال ينتظره . وضميره سيبقى معذبا

١ - No-ism هذا تعبير ابتدعه شو هنا ، للإشارة الى الخلق السلبي الذي تجده عند فريق من الناس . وهو عدم ايمانهم بما نقول وانكارهم كل شيء .

غير مرتاح والخطيئة الاصلية ما برحت تورثه الآلام ومغامرته مع الجبار المسمى (اليأس) الذي يقذف به الى جب (قلعة الشك) (يفلت منها باستخدام مفتاح رئيس) (١) هي افطع من اية تجربة مرت به يوم كان حمل خطاياه مردفا على عاتقه .

ان قصة بونيان الرمزية عن الطبيعة الانسانية ، تغزو لاهوت بولس في مائة نقطة ونقطة . -ان قصته الرمزية اللاهوتية والحرب المقدسة بجنودها من النخبة المرتابين وفرسانها الذين يمتطون صهوات «خيل الاصلاح» هي سخيصة ككل ، مستحيلة يكاد يمجها الذوق فلا يقوى المرء على قراءتها باستثناء الفترات التي ترى فيها آدم الفنان الشيخ وهو يغزو فيستظهر في كل لحظة على ذلك اللاهوتي الخلاصي ! (٢) .

ان نظرية بولس في الخطيئة الاصلية كانت تمتاز بميزة معينة الى حد ما . فهو يقول جازما بأنه قادر على اجتناب الوقوع في خطيئة الجنس باتخاذ الصفة الفردية . الا انه يدرك بشكل يغلب عليه الاستخفاف بأنه في هذا المجال ليس كالاخرين فيقول : خير لهم ان يتزوجوا من ان يحترقوا ، وبذلك يسلم ان الزواج وان كان يؤدي الى تقديم الرغبة في مسرة الزوجة او زوجها على الرغبة في مسرة الله ، الا ان الانشغال بالرغبة التي لم تشبع قد تكون كفرا بالله اكثر اثما من الانشغال بأمور العاطفة الزوجية . ان وجهة النظر هذه الى القضية ادت به بصورة لا مفر منها الى الاصرار على ان المرأة يجب ان تكون أمة رقيقة لا شريكة حياة ، وان مهمتها الحقيقية ليست لاجتذاب حب الرجل واخلاصه بل بالعكس لاجل

١ - SkeletonKey وهو مفتاح مصنوع بصورة خاصة ليفتح اكبر عدد من الاقفال .

٢ - يقصد به الرسول بولس كما هو واضح .

اطلاقهما وتوجيههما الى الله بتحرير الرجل من كل انشغال
بالجنس مثلما تحرره بوصفها مدبرة بيت وطاهية ، من انشغاله
بأمر الجوع ، يتم ذلك بالوسيلة البسيطة : وهي اشباع شهوته .
هذه العبودية تبرر نفسها برغباتها بالعمل بصورة مؤثرة . الا انها
جعلت بولس عدواً خالداً للمرأة ، وادت بصورة عفوية الى كثير
من الحسد والتخمين الاحمق حول اخلاق بولس الشخصية
وظروفه من قبل اناس استبد بهم الشبق الجنسي حتى عدوا
العازب غولاً مخيفاً . وهم ينسون بأن كل طبقة الكهنة الرسميين
وغير الرسميين ، ابتداء من بولس حتى كارليل ورسكن قد تحدثت
طفيان الجنس فضلاً عن عدد كبير من المواطنين العاديين مسن
الجنسين انقلدوا مؤهلاتهم وطاقاتهم سعياً وراء ضروب نشاط أقل
بدائية وبهيمية من النشاط الجنسي اما باختيارهم واما تحت
ضغط ظروف يمكن التغلب عليها بسهولة .

ان بولس على اية حال ، نجح في سرقة صورة المسيح المصلوب
ليجعله تمثالا لقيدوم سفينته الخلاصية وليجعل آدم متخدلاً فيها
شكل وابعاد الانسان الطبيعي ، الى جانب العقيدة بالخطيئة
الاصلية ولعانها الذي لا يمكن الخلاص منه الا بالايمان بتضحية
الصليب . والواقع انه بما ان قام يسوع بطرح تئين الخرافات
ارضا ، حتى بادو بولس بانهاضه على قدميه انهاضاً باسم يسوع
نفسه .

فوضى العالم المسيحي

بات واضحاً الآن انه يجب الا يخلط المسء بين دينين لهما
تأثيران مختلفان في البشرية ولهما في الوقت نفسه اسم واحد .
ليس هناك كلمة واحدة من مسيحية بولس في اقوال يسوع التي

تحمل طابعه . وعندما وقف شاؤول (١) حارسا على ثياب اولئك الذين رجموا اسطفانس فانه لم يقم بذلك بوحي من المعتقدات التي نيزها بولس . كذلك ليس هناك قط ما يشير الى ان يسوع قال لاي انسان « اذهب واثم قدر ما تريد وبامكانك ان تضع اثامك كلها على عاتقي » بل قال « لا تأثموا » واصر بأنه انمسا يضع حدودا ومقاييس للسلوك ، وليس يحط من مستوى السلوك . واكد ان صلاح المسيحي يجب ان يرتفع عن مستسوى صلاح الكتبة والفريسيين وأن فكرة بذل دمه حتى يخوض فيه كل محتال وزان وفاجر ، ليخرج منه وهو انصع بياضا من الطيف ! لا يمكن ان تعزى الى يسوع من مرجعه نفسه أعني لا يمكن ان نعزو اليه قوله مثلا « جئت كعقار ذي علامة مسجلة ، لا يخطيء مفعوله ، لمعالجة الضمائر المريضة والجانحة » ان هذا ليس من اقوال الاناجيل . ولو كان بالامكان استشارة يسوع في قصة بوليان الرمزية حول موضوع حمل الخطايا الساقطة عن ظهر الحاج عند رؤيته الصليب ، فعلينا ان نستنتج من تعاليمه بأنه كان سيقول لبوليان بلهجة جازمة : انك لم ترتكب في حياتك خطأ اعظم من هذا . وان وظيفة المسيح هو ان يجعل الاثمين المذنبين يشعرون بعبء خطاياهم فلا يعودوا يرتكبونها ، لا التأكيد لهم بأنهم امامها عاجزون لا يستطيعون لها دفعا ما دامت كلها بسبب خطيئة آدم على ان هذا لا بهم ما داموا ينظرون الى المسيح نظرة صداقة وتصديق . حتى عندما اعتقد انه إله فانه لم يعد نفسه كبش فداء . وكان يترتب عليه ان يمحو خطايا العالم بحكومة جيدة ، وينشر العدالة والرحمة ، ووضع مصلحة اطفاله فوق غرور الامراء والقضاء كل الشعوب والوثنيات التي تفتصب قوة الله وتفسدها فيما تسميه سلطاتنا

١ - هذا هو اسم بولس اليهو ، الاصلي .

الحاكمة اليوم «بآلة اطلاق النفائات» وبركوب سحب السماء
بالمجد بدلا من ركوب سيارة ثمنها ألف جنيهه (١) . ان هذا ،
هذيان لو تدبرته ا على انه هذيان روح حرة لا هذيان روح اسيرة
الخنجل كروح بولس . وفي الحقيقة ليس ثم خدعة يرتكبها امرء
افطع من خدعة مقارنة روح بولس وتحديدها على ضوء روح
يسوع .

سر نجاح بولس

لا شك ان الزمن لم يطل ببولس ليجد أتباعه قد توصلوا الى
راحة البال وحققوا الانتصار على الموت والخطيئة على حساب كل
مسؤولية ادبية ، اذ انه عمل جهده لاعادة صياغة المبدأ بجعل حسن
السلوك محكا للايمان الراسخ، مصرا على ان الايمان الراسخ المكين
ضروري للخلاص ، ولكن لما كان نظامه قد ثبتت جذوره فيما اتضح
بان ما سمّاه خطيئة انما يتضمن الجنس ولما كان والحالة هذه
جزء لا يمكن فصله عن الطبيعة البشرية (والا لماذا وجب على
المسيح ان يكفّر عن آثام كل الاجيال القادمة ؟) فقد تعذر عليه
التصريح بان الائم — حتى في اشنع مظاهره — قادر على ضمان
خلاص الائم اذا ندم وآمن . ومسيحية بولس الى يومنا هذا ما
هي الا «علاوة راتب !» للائم ، كذلك فهي تدين بفضل موصفتها
الشائعة جدا الى كونها كذلك ، كان من الواجب على تلك الاغلبية
التي خبرت الحياة ، ان تكبح جماح نتائجها وآثارها بنظام
اشتراكي منيف وهو قانون العقوبات والقواعد الاخلاقية الصارمة .
على ان الكايح الرئيس هو الطبع البشري بطبيعة الحال ، ففيه

٢ - اي : سيارة باهظة الثمن .

الميول الصالحة كما فيه الميول الطالحة . نراه بحجم من السرقة والقتل والقسوة حتى عندما يبشرونه بأن في مقدوره ان يفترقها كلها على حساب المسيح ثم يعرج الى السماء سعيدا مطمئنا ، مجرد انه لا يرغب دائما في ان يقتل او يسرق ، او يعذب . ويسهل كثيرا اليوم فهم سبب فشل مسيحية يسوع فشلا تاما في تثبيت نفسها سياسيا واجتماعيا ولماذا كان من السهل جدا خضد شوكتها وتصفيتا بقوة الشرطة والكنيسة ، في حين اجتاحت البولسية العالم الغربي المتمدين كله ، وكانت في ايامه الامبراطورية الرومانية التي اتخذت من البولسية دينا لها رسميا فخرت الآلهة المنتقمة القديمة صريعة وباتت عديمة الحول أمام «المخلص الجديد» . على ان تلك الآلهة كما نرى ، ما زالت محتفظة في افريقيا لسلطانها في اداء رسالة الامل والعزاء للبسطاء بشكل لا يفاج فيه ولا يقوى عليه دين آخر . على ان هذا السحر يولده امتزاجها غير الشرعي مع السحر الشخصي الذي حازه يسوع ولم يحرز الا لاجل العقول البدئية التي ينقصها التدريب . الا ان الامر اختلف عندما وصلت الى يد رجل منطبق مثل كالفن فقد دفعها الى غاياتها القصوى مستنبطا كنائس «للبالغين من بين اولاد الاسكتلنديين الحمقى والسويسريين الواقعيين» وبذلك جعلها اشد العقائد الجبرية جهنمية ! يفسد منطقها حياة الاطفال المتمدنين ، في حين يسعد الزوج الاقزام في خرافاتها .

فضائل بولس

ومهما يكن من امر فبولس لم ينل سمعته العظمى بمجرد «الارغام» و«رد الفعل» . وهو لا يبدو مبتدلا او مختالا الا عندما يقارن بيسوع (الذي يفضل الكثيرون عليه) . وان هو بدا قسي اعمال الرسل احيائيا مبتدلا سوقيه فانه يبدو في سفر اعماله

الخاص ، شاعرا مطبوعا وان كانت تلك الشاعرية تبدو كإيماءات خاطفة . كان بولس بعيدا عن المسيحية ، قدر ما كان يسوع بعيدا عن المعمدانية . انه تلميذ ليسوع قدر ما كان يسوع تلميذا ليوحنا المعمدان ، لا يعمل شيئا مما كان يسوع بهم بعمله ، ولا يقبول شيئا مما كان يسوع سيقوله . ولو انه طبق مثال (التقدمة الى الاحسان) (١) المشهور ل زاد الامجاب به . انه اشد تمسكا باليهودية من اليهود ، وا أقوى رومانبة من الرومان. وهو يفخر بالوجهين ولا ينضب له معين من الاعترافات المذهلة والرؤى الشخصية التي لا نندهش اذ نراها تنسلّ انسلا لا الى صفحات نيتشه . يعذبه ضمير مثقف لا يفنا يتطلب قضية محكمة على حساب المغالطة مع مخلف انواع الفضائل الجميلة والومضات العقلية العرّضية اللامعة ، الا انه لا يني يروح دونما أمل بالخلاص ، تحت وطأة الانسجم والموت والمنطق وتلك أمور لم يكن لها اي سلطان على يسوع . وقد سبق فرأينا ان مزجه شعوره بالعبودية والرعب في العقيدة المسيحية ادى الى تبني الكنيسة والدول والانظمة السياسية لذلك الاتجاه ، وهذه أمور سما فوقها يسوع ، وهكذا جعل بولس المسيحية عقيدة عملية بقضائه على الجانب اليسوعي فيها على الاخص . وهذا ما قد يكون مناسباً تماما لاية دولة برومسانتية لذلك كان هو وليس يسوع الزعيم الحقيقي والمؤسس الاول لكنيسة الاصلاح ، كما كان بطرس مؤسسا للكنيسة الرومانية . واتباع بولس وبطرس هم الذين اوجدوا العالم المسيحي ، اما الناصريون (٢) فقد قضى عليهم القضاء المبرم .

-
- ١ - او الصدقة او ما يدعى بموعظة يسوع الكبرى وهي الفصول ٥ و ٦ و ٧ من انجيل متى و(الاحسان) المقصود هو الفقرة التي تصنفها العمل السادس .
٢ - اعني اتباع يسوع الناصري .

اعمال الرسل

لنا ان نعود هنا الى القصص المسماة بأعمال الرسل . وكنا قد دققنا فيها عند مرحلة رجم اسطفانس واتبعناها بتقديم بولس . ومع ان مؤلف اعمال الرسل قاصّ جيد كلوقا الا انه كان هنا أضعف منه كثيرا كلوقا ايضا في قوة الفكرة منه في فن الادب التخيلي . ومن هذا نجد الناس الذين يغرمون بالقصص ويتجافون اللاهوت يعزّون تأليف اعمال الرسل الى لوقا ايضا في حين انكر اللاهوتيون البولسيون الكتاب برمته ورموه بالزيف لان بولس وكل الرسل في الواقع ظهوروا فيه وكأنهم «بعثيون» (١) مبتدلون عاديون يجتذبون اهتمامنا ويلفتون انظارنا بما لقوه من مفامرات ومفاجآت اكثر مما يجتذبونه بفضائل الفكر وبفضائل الخلق . ولولا انهم رسل لكانت فكرتنا عنهم والحق يقال هزيلة جدا . وقد وصّف بولس بصورة خاصة بأنه موجد موضة ظلت شائعة دارجة الاستعمال حتى يومنا هذا ، ففي كل مرة يخاطب جمهورا تراه يسهب بحرارة عظيمة في ذكر آثامه قبل هدايته الزائفة مستهدفا القاء حالة قداسته الحاضرة الى راحة نفس اقوى عودا . انه ليفصل في حكاية تلك الهداية مرة بعد اخرى ينتهي باستنهاض همم سامعيه للانضواء الى لوائه حتى يحققوا خلاص انفسهم ويهدد بالعقاب الالهى الذي ينتظرهم ان هم رفضوا السير ورائه . واليوم تستمع الشيء نفسه من اي اجتماعي «بعثي» وترى الاهتداءات نفسها تتبعه . انه لامر طبيعي ليس الا . غير انه لا يشبه تعاليم المسيح الذي لم يحدث الناس في خطبه من سيرته وحياته الخاصة . ولم يعمد مطلقا الى «اصعساد» نفوس

١ - اي : المؤمنون بالعودة الى الحياة ثانية .

المستمعين الى حد الهستيرة . ان هذه الاجتماعات ترمي السي
التأثير على الاعصاب ليس غير ، ولا تحمل في طياتها التنوير
وإضاءة الطريق ، وأعظم الناس جهلا ما عليه ألا ان ينتشي بزهوه ،
ويتوهم ان رضاه عن نفسه ان هو الا من روح القدس ليكون
«رسولا مجازا» ولا علاقة لهذا كله مطلقا بمبادئ المسيح المعروفة .
قد يكون «الروح القدس» ناشطا في كل ما حولنا ، يخلق المعجز
من الفن ، والعلم ، ويقوّي من عزائم البشر ليتحملوا مختلف أنواع
الشهادة ، لاجل توسيع دائرة المعرفة وإحصاب الحياه ، وجعلها
اكثر غنى وزخما «حتى تكون لكم حياة اكثر غزارة» الا ان البرسل
كما ونصفوا في «الاعمال» تراهم لا يسهمون في هذا النضال الا
بوصفهم ادوات لعنة وتعذيب ، والى يومنا هذا ، عندما تكون
لخلفائهم اليد العليا كما في جنيف (١) «أنظر نوكس في : مدينة
المسيح المثلى» (٢) وفي اسكتلندا وأولستر ، فان كل نشاط روحي
يقمع ما عدا جمع المال والدوام الى الكنيسة . والزنادقة يضطهدون
اضطهادا لا هوادة فيه ، ومتع الحياة التي يبتاعها المال مثلا تمنع
وتحبس الى درجة يضطر معه حائزوها الى المضي قدما في جمع
المال لانه ليس ثم ما يعملون سوى ذلك . وكل التعويض السلبي
تناله عن هذا الحرمان هو تصورك الجنوني من جهة ، بأنك صفي
الله وانك صاحب مقعد محجوز في السماء ، ومن جهة اخرى لان
اكبر المفتنين بالنفس جنونا لا يستطيع ان يقضي معره مفتونا
بنفسه ، فاقبل المحرضات براءة وهي عقاب الآخرين لافتقارهم الى
الاعجاب بذلك المفتون ، والتشهير بأثام الناس الذين هم بدرجة
من الذكاء بحيث لا يملكون معها قدرة على معاناة الايمان الممل بكونه
اقوم الناس واكثرهم تعرضا لجمال اعمال الروح القدس ونعمه .

١ - مركز الكالفينيين .

٢ - (١٥٠٥ - ١٥٧٢) مصلح بروتستانتى اسكتلدى .

حتى هؤلاء يحاولون العيش حياة أكثر غزارة واقرب الى الواقعة .
 ان اللهو الكريه واعني به تخويف الاطفال بأهوال جهنم هو واحدة
 من امثال تلك التسلّيات وربما كان اقبحها وأكثرها أزعاجا .
 والحاصل الصافي هو ان مقلدي الرسل ، سواء اطلقت عليهم
 اسماء (الهولي ويلز) (١) او سمينهم (ستكنيز) (٢) اسنهمزاء
 واستصافرا ، او (البيوريثان) (٣) او القديسين ، أمجبا وتقديرا ،
 فهم مكروهون جدا خارج جماعتهم مثلما هم داخل جماعتهم والى
 مدى كبير ! على انه ليس ثم من يمقت يسوع مع ان كثيرا ممن
 عذب في طفولته باسمه يدخل في عداد كرهه كل ما له علاقة
 بالدين في حين تجد الآخرين الذين لا يعرفونه الا بالصورة الخلاه
 التي وصفت لهم ، اي بأنه مسالم رقيق العاطفة زاهد ، تراهم
 يدخلونه في عداد الكره العام الذي يحفظونه لامثال هذا النموذج من
 الشخصيات . وعلى المنوال نفسه ان الطالب الذي وجب عليه ان
 يحفظ شكسبير ويتدارسه في الكلية توصلا الى النجاح فسي
 الامتحان قد يكره شكسبير ويمقتة . وتجد الناس الذين يكرهون
 التمثيل المسرحي قد يحشرون مولير فسي عداد المكروهين من
 هذا الصنف مع انهم لم يقرأوا منه سطرا واحدا او يشاهدوا
 مسرحية واحدة من مسرحياته . لكن ليس ثم انسان له بعض

٢٠١ - ما يدعى بـ Holy Willies او Stigginses اسمان يطلقان مزاحا
 وسخرية ، على الاشخاص المتظاهرين بالصدق والاستقامة والترفع عن الدنايا
 والاشباب من الناس من قصيدة روبرت برنز «صلاة هولي ويلي» ومن مستر سكندر
 وهو شخصية في رواية (اوراق مستر بيكوك) لشارلو ديكنز .
 ٣ - The Puritans هم لمة دينية منحمة متعصبة انشقت عن
 سائر المسيحية الانكليزية في القرن السابع عشر وناصبت كنيسة انكلترا العدا .
 واتخذت التوراة دليلها الاوحد .

وقوف على شكسبير او المام بموليير يستطيع ان يفضهما او ان يقرأ دون شعور بالالم والاستنكار وصفا او شرحا لإهانة أصيبا بها او لتعذيب كابداه ، او قتل نالاه . والقول نفسه يصدق على يسوع . غير انه يجب ان يبدل المرء اعنف ما يمكن من جهل وجدائي ، ليمتنع عن الهتاف «يستاهل !» عندما يقرأ قصة وجم اسطفانس ! ليس ثم من اهتم قلامة ظفر باستشهاد بطرس فهناك اناس كثيرون هم اكثر منه صلاحا ماتوا ميتات أشنع من ميتته مثل هيولاتييمر (١) الصادق الامين الذي احرقناه . فهو يسوي خمسين اسطفانس واثني عشر بطرس ! ان المرء ليشعر اخيرا بأن يسوع بدعوته بطرس من زورق صيده ، أفسد صيادا امينا مخلصا ولم ينحت من هذا النكود شيئا يزيد عن «تاجر خلاص» .

الخلاف حول العباد والتجسد

في الوقت نفسه كانت العاقبة المحتومة لنبد مبادئ يسوع والعودة الى يوحنا المعمدان هي ان. اهتداء الوثنيين الى النصرانية بات أسهل من اهتداء اليهود اليها . ولم يصر بولس رسولا للوثنيين الا باتباع خط يمتاز بأقل المقاومة . كان لليهود فريضتهم الخاصة للتهود هي فريضة الختان . وكانوا شديدي التمسك والتقيد بها لانها العلامة الفارقة التي تدل على انهم (شعب الله المختار) وبها وحدها يتميزون عن الوثنيين الذين هم في عرفهم ذوو غلّف (قلف) لا غير . ولما وجسد بولس ان العباد يعبد طريقه بين الوثنيين ويجعله اسرع مما هو بين اليهود لانه يسهل

١ - (١٤٨٥ - ١٥٥٥) اسقف انكليزي اُحرق حيا بتهمة الزينج والهرطقة في عهد الملكة ماري الاولى الكاثوليكية بعد ان رفض انكار عقائده البروتستانتية .

على الآخرين الادعاء بأنهم هم أيضا مطهرون بمراسيم قررها نص
أرفع مقامها وأقرب عهدا من المراسيم الموسوية ، اضطر الى الاقرار
بأن الختان ليس مهما . وهذا عند اليهود تجديف لا يسمعون
الاغضاء عنه . أما الوثنيون أمثالنا ، فعندنا اليوم ان الكثير من
«الرسائل الى اهالي رومية» (١) هي مملة الى الحد الذي تتعذر
معه قراءتها لانها تتضمن محاولة خائبة من بولس لتحاششي
الاستنتاج بأن الرجل اذا عُمِد فلا يهم مطلقا موضوع ختانه اكان
مختتن ام غير مختتن . ويؤزم بولس ان الختان شيء ممتاز بعد
ذاته عند اليهودي . ولكن اذا لم يكن له اي تأثير في مسألة
الخلاص ، واذا كان الخلاص هو الهدف الوحيد الضروري (وبولس
يأخذ بالفرضين معا) فان دعوته الى التساهل زادت من عزم
اليهود على رجمه .

هكذا وجدنا مسيحية الرسل منذ اولها نتعثر وتتفاقم
مشكلتها بالخلاف الدائر حول ما اذا كان الخلاص يتم الوصول اليه
بعملية جراحية ام بصب الماء ؟ وهما من قبيل الشعائر لا غير ما
كان يسوع ليبدد فيها عشرين كلمة . وفي الازمنة المتأخرة عندما
غزا المذهب الجديد الغرب الوثني حيث لم يكن لهذا الخلاف في
الشعائر اي مجال حيوي في التطبيق العملي ، فان الفريضة
الآخري وهي «اكل الله» (٢) ولدت نزاعا اعظم وانكى . اذ انشأت
اسبابا شنعاء مخيفة للاضطهاد والتشكيل والبغضاء والتقتيل وكل

-
- ١ - جزء من اعمال الرسل وتتضمن الرسائل التي كتبها الرسول بولس الى
اهالي رومية المسيحيين الاوائل اجوبة عن استفسارات تتعلق بالدين والمعاملة .
 - ٢ - اشارة الى ان ساول النجر والنجر عند المسيحيين في احوال دينية
مخصوصة يمثل اللبحة الالهية اي التضحية بجسد المسيح ودمه ثم اكل التضحية
كما كان يجري قبله . فقد اثير موضوع منوي وهو هل ان المادة الالهية تهضم
عندما تنزل الى المعدة والامعاء كالطعام العادي وتسري عليها التحولات نفسها ؟

ما كان يسوع يشتمز منه . كان موضوع الخلاف في هذه الفريضة لا يتضمن تأدية الفريضة أو عدم تأديتها . بل هل ان هضم المادة الالهية معديا هو مجازي أم حقيقي ؟ الا ان الشعيذات التي لصقت بالدين الجديد قبل هذه المسألة بزمان طويل هي التي خلفت المتاعب فولادة المسيح من العذراء (كانت في السابق تنظر ببساطة كمعجزة شائعة في مبدا الامر) لم يتركها اللاهوتيون في بساطتها هذه وانما بداوا يتساءلون من اية مادة كان الجنين يسوع وهو في رحم العذراء ؟ ثم لما اضيفت عقيدة الثلاث ؟ برز السؤال التالي : هل العذراء هي والدة الله أم والدة المسيح فحسب ؟ فظهرت على اثر ذلك الانشقاقات الأريوسية والنسطورية من هذين السؤالين وراح زعماء هذه الانشقاقات وغيرها يقطع (يحرم) احدهم الآخر ويقضي بحرمانه لكل حقد وفظاظة حسب حظوظ كل في اجتذاب الاباطرة كل الى صفه . وفي القرن الرابع بدأ يحرق احدهم الآخر للاختلاف في الرأي حول هذه الامور نفسها . وفي القرن الثامن جعل شارلمان الديانة المسيحية اجبارية بقتله كل من يابى اعتناقها . ومع ان هذا كان ختاماً للهداية الاختيارية الى الدين فمن حق شارلمان ان يفخر بأنه اول مسيحي كان يأمر بقتل الناس بسبب نقطة جوهرية في العقيدة حقا . وابتداء من عصره فصاعداً أضّ تاريخ الصراع المسيحي مخضبا بالدم مشتعلا بالنار ، مثقلا بأوضاع التعذيب والحروب ، كالحروب الصليبية والاضطهادات الالبيجية (١) ومسا اليها ، وكمحاكم التفتيش والحروب الدينية التي عقيبت الاصلاح كلها تبدو ظاهرة مسيحية عادية . لكن ليس ثم فينا من يشك في ان يسوع كان سيشجبها مستفظعا مشتمزا . ان فكرتنا الخاصة حول مذبحة سان بارثولوميو (٢) تقول بأنها انتهاك لحرمة الدين

١ - طائفة دينية نبغت في القرن ١٢ حتى ١٤ في جنوب فرنسا . اضطهدهم الكنيسة الكاثوليكية وقضت عليهم .

٢ - هي مذبحة البروتستانت في فرنسا .

المسيحي ، في حين ان حروب غوستاف ادولف (١) بل قولنا ان حروب فردريك الاكبر انما هي دفاع عنها ، له فكرة سخيفة بمستوى سخف الفكرة المعاكسة القائلة بأن فر هذا ، كان ضد اليسوعيين نظرا للمسيح وتوركو وما واغناطيوس ليولا رجلان يماشيان ذوق يسوع تماما ! ه الناس واعمالهم لا تربطها اية علاقة بيسوع . ومن المحتم لود رئيس الاساقفة وجون ويزلي ماتسا وكلاهما مقتنع ب ذلك الذي باسمه جعلتا نفسيهما مشهورين على الارض ، سيت بذراعين منبسطتين في السماء ! ان جورج فوكس الز الكويكري كان عنده عشرة امثال ما كان عندهما من حظ هذا فقد جعل من حياته عملا بائسا حقيرا لا يسوى شروى مهما يكن من امر فكل هذه الانحرافات في دين يسوع استمدت قوتها الادبية من رصيده ، وكان عليها والحالة ها تبقي انجيله حيا . عندما ترجم البروتستانت التوراة الى ا العامة واطلقوه سائبا بين الناس ، اقدموا على عمل في غا الخطورة كما برهن عليه الضرر الذي تلا ذلك . على انهم ب هذا اطلقوا اقوال يسوع تصول وتجول في مباراة حرة مة مع اقوال بولس والكوهيلت (٣) وداود وسليمان ومؤلفي ايوب وكتاب اسفار العهد القديم الخمسة الاول (٤) ولقد كيف بدا يسوع الاسم الفائز عليهم . ان التناقض الصارخ تطبيقات كل الدول والمذاهب ، وبين تعاليمه لم تعد سرا مكا ومع ان تسعة عشر قرنا مرت على ولادة يسوع (من المستفرم يترجم تاريخ ميلاده في السنة السابعة ق.م مع ان بعضهم انه جاء في السنة ١٠٠ ق.م !) ومع ان كنيسته لم تقم ب

١ - ملك السويد .

٢ - رئيس محاكم التفتيش في القرن الخامس عشر .

٣ - اسم عبراني للحكيم الذي ذكرت تعاليمه في سفر الحكمة من التو

٤ - وهي : سفر التكوين ، والخروج ، والاحبار ، والعدد ، وثنية الان

ونظامه السياسي لم يوضع موضع تجربة حتى الآن ، فان افلاس كل الانظمة الاخرى عندما جرى تدقيقها على ضوء احصاءاتنا الرئيسية الجوهرية ، انما تدفعنا دفعا لا هوادة فيه الى قبوله لا بوصفه كبش فداء بل بوصفه اقل بكثير من ساذج في المسائل العملية مما كان الجميع يظنونه الى حد الآن .

ما هو بديل المسيح ؟

الا دعنا نوضح موقفنا قليلا . بفص العهد الجديد حكايتين نوعين مختلفين من القراء : اولاهما القصة القديمة عن تحقيق خلاصنا بالتضحية والكفارة التي قدمها الإله المذبح ذبيحا ببربريا والمبعوث ثانية في اليوم الثالث ، وقد قبلها الرسل على علانها . ولم يكن فيها اية اهمية لآراء المسيح السياسية والخلقية ، فالفداء فيها كل شيء ونحن نحقق خلاصنا بمجرد ايماننا به لا بالاعمال او الآراء القائمة على الامور الواقعية المخالفة لرأي الفداء نفسه . اما ثاني الحكايتين ، فهي قصة ذلك النبي الذي غم على عقله وحنّ بعد أن عبّر عن عدة افكار هامة بخصوص السلوك العملي (الشخصي منه والسياسي ذي الاهمية القصوى في يومنا هذا) وبعد ان أمر رسله بالتمسك بهذا السلوك في حيواتهم اليومية ، ثم توهم نفسه انه شكل اسطوري خام من اشكال الله . واندفع بتأثير هذا الوهم باحثا عن مينة قاسية ، فتجرع آلامها معتقدا انه سيقوم من بين الاموات ويأتي ممجدا لبتربع عرش الحكم في دنيا جديدة . فبهذا الشكل نجد آراء يسوع السياسية والاقتصادية والخلقية ذات اهمية وامتاع بوصفها مرشدا ودليلا الى السلوك . اما ما تبقى فهو مجرد اوهام وتخريف . اما روايات القيامة ، والولادة من العذراء والمعجزات التي تفوق غيرها في صعوبة الايمان بها فقد نبذت كلها وأطرححت جانبا بوصفها مجرد تلفيق .

السذاجة ليست مقياسا

هذا القبول الاعتباطي ، والرفض الاعتباطي لاجزاء مسن الانجيل ليس غريبا من وجهة النظر الدنيوية . ولقد راينا لوقا ويوحنا يرفضان حكاية متى عن مذبحة الاطفال والهرب الى مصر رفضا لا توجس فيه ولا حذر . اما القول ان مخطوطة متى هي سجل حرمني دقيق للوقائع لا يرقى اليه الشك ولا يخضع لاي من الاخطاء التي لا يخلو منها كل مؤرخي هذا العالم ستجعل يوحنا يبدل بعينه مذهولا غير مصدق . فهو الى حد ما خيال عصري يستهوي اناسا ناقصي التدريب ثقافيا ، ممن يضعون التوراة على نفس الرف الذي يضعون فوقه كتاب (حظوظ نابوليون) و(تقويم مور القديم) و(مختصر طرائق العلاج بالاعشاب الطبية) (١) . قد تكون (خلاصا) متعصبا وترفض من حكايات المعجزات اكثر مما رفضه هكسلي (٢) وقد ترفض يسوع رفضا مطلقا بوصفه (مخلصا) ومع ذلك فانك تستشهد به وتتخذة دليلا تاريخيا على احراز البشر القوي لصنع المعجزات «المسيح العلمي» (٣)

١ - هذه هي عناوين كتب صنف لاناس يؤمنون بالخرافات وهي كتب طوابع وفال او وصفات طبية تؤخذ من اعشاب وابهة عادية تعزى اليها قوى شيطانية عجيسة .

٢ - T.H. Huxley (١٨٢٥ - ١٨٩٥) كاتب انكليزي لي مواضيع فلسفية ودينية وعلمية يصف نفسه بالفنوصية . اعني بذلك الذي افننح بانه لا يمكن التوصل الى (معرفة : Gnosis) اي شيء من وجود الله او عدم وجوده بشكل مادي محسوس ، وحين كتبه هو «مكانة البشر مسن الطبيعة» Man's Place in Nature كتبه في ١٨٦٣ .

٣ - وهي ما يطلق عليه Church of Christ Scientist

ويسوع المهاتما انما يبشر بسبه من كان بطرس سيضعفهم موتى
 لانهى اعظم كفرا والحادا من شمعون الساحر العظيم ، والالام
 (الكفارة) يعط بها الكهنة الممعداتيون جماعة المؤمنين الذين
 لا تختلف وجهة نظرهم في الاعاجيب عن وجهات نظر انغرسول (١)
 وبرادلو (٢) . ان لوثر الذي كنس القديسين كنسا مع ملايين من
 معجزاتهم ، وانزل العذراء المباركة نفسها الى مقام وثن من الاوثان ،
 ركز عقيدة الخلاص تركيزا جعل معه شر القتل ، واشنع السفاكين
 يسقطون راسا بين ذراعي يسوع اذا هم آمنوا بها وحبل المشتقة
 ملتف حول اعناقهم في حين يسقط توم بين وشللي نسي
 حفرة لا قعر لها ليحترقا هناك الى دهر الداهرين . والطبيعيون
 المحدثون امثال سر وليم كروكس يبرهنون بمساعدة التجارب
 المختبرية ان وسطاء الارواح من امثال دونكلاس هوم يستطيعون
 ان يجعلوا مؤشرا في ميزان حلزوني يدور دون ان يلمس الثقل
 المتدلي منه !

الايمان بالخلود الشخصي ليس معيارا

حتى الايمان بخلود الفرد ، فهو ليس معيارا قط . ان

١ _ Robert Green Ingersoll (١٨٢٣ - ١٨٩٩) كاتب امريكي تقدمي
 دارويني النزعة وقانوني ومحام حمل على حرفة التوراة والاناجيل وانتقدها
 انقادا بشديدا على ضوء المنطق .

٢ _ Charles Bradlaugh (١٨٣٣ - ١٨٩١) مصلح اجتماعي انكليزي ،
 ومن مشاهير العقلايين ، انتخب عضوا للبرلمان في (١٨٨٠) لكن لم يسمح له
 باحتلال مقعد البرلمان لرفضه اداء القسم الديني التقليدي بالاخلاص .

التيوصوفيين الذين يرفضون الغداء بالاستنابة رفضا شديدا ،
ويصرون بأن اصغر آثامنا تأثينا بما يدعى الكارما (1) الخاصةبها،
كذلك تراهم يصرون على التناسخ وخلود الروح الانسانية حتى
يعدوا ميدانا لا حدود له للكارما ليصل اليها الخاطيء الذي لم
يتم خلاصه . ان الايمان بدوام حياة الانسان بعد ان يسجي في
القبر ، لهو اعتقاد اقرب الى الحقيقة منسد مستحضري الارواح
بطريقة المائدة مما هي عند المسيحيين العاديين . والفكرة القائلة
ان أولئك الذين يرفضون المشروع المسيحي او اي مشروع غيره
حول الخلاص عن طريق الفداء يجب ان يرفضوا ايضا الايمان
بخلود الانسان وبالمعجزات بوصفهما امرين لا يستندان الى الواقع
كالفكرة التي تقول : اذا كان المرء ملحدا فانه سيسرق ساعتك !
في مقدوري ايراد تشابه من هذه الامثال الى حد اصابتك
بالملل . والاختلاف الاساسي لم يكن الاختلاف ما بين الايمان
بالكائنات الفائقة للطبيعة والحوادث الخارقة للعادة ، وبين الرأي
الاكثر نزما للايمان ، الذي ينظر الى الايمان بوصفه اهدارا لقيم
السلامة الفكرية . انه الاختلاف بين قوة فاعلية عملية «الصلب»
بوصفها دواء لا يخطيء في معالجة الخطيئة وبين عجز فطري عن
فهم هذا ، او عن الرغبة في الايمان به وهو عين الشيء .

النظرية العلمانية الطبيعية وليست عقلية فهي لهذا ، حتمية

علينا ادن ان نأخذها حقيقة جوهرية صريحة ، رغبتنا في ذلك

١ - الكارما Karma وهي نوع من الثيوصوفية (تقدم شرحها)
معقدة هندوسية بوذية تقول ان الاشكال (الحالات) التي يتخذها الوجود البشري
بالتتابع ترتفع وتخط بالنسبة الى صلاح الشخص او فساده في مراحل
حياته السابقة .

أم كرهنا . فكما ان كثيرين منا لا يسعهم الايمان بأن يسوع حكم
 قبضته القريبة ، على ارواحنا بطريقة العاطفة والمشاعر لا غير .
 كذلك لا يمكن ان نصدق بأنه كان (جون بارلي كورن !) وكلمنا
 كان عقلنا ودراستنا يؤيدان بنا الى الاعتقاد بأن يسوع انما كان
 يتكلم بأعمق الآراء والأفكار السليمة عندما يبشر بالشيوعية ،
 وعندما يصرح بأن الحقيقة التي تكمن وراء الايمان الشائع بالله ،
 انما هي الروح الخلاقة المستقرة في انفسنا والتي سمّاها هو
 (بالاب السماوي) وسميناها نحن (بالارتقاء) او بالقوة الفاعلة الحية
 Elan Vital وغيرها من الاسماء . وعندما احتج يسوع على
 ان الزواج والاسرة يسلبانا ذلك الجزء السامي من حيويتنا التي
 قصد بها خدمة ابيه السماوي ، نقول كلما ادى بنا عقلنا ودراستنا
 الى هذه النتائج ، وكلما تعذر علينا الاعتقاد بأنه كان يتكلم بسلامة
 تفكير عند اعلانه بتك الصورة المفاجئة عن نفسه بأنه هو الله
 بالذات متجسدا ، وان لحمه ودمه هما الطعام العجائبي الذي
 يجب ان نتناوله ، وانه سيقوم من بين الاموات بعد ثلاثة ايام وان
 النجوم ستساقط من السماء عند مجيئه الثاني وسيملك على
 فردوس ارضي . ولكن من السهل المعقول ان تعتقد باحتمال اصابة
 مرهق الاعصاب بالجنون كما اصاب سويغت ونيتشه ورسكين .
 ولكل بيمارستان نزله الذي يعاني من وهم كونه إلها ، في حين
 انه انسان عاقل فيما عدا هذه الفكرة . نزلاء المارستانات هؤلاء
 لا يصرحون بانهم سيقتلون قتلة شنعاء ويقومون من بين الاموات .
 ذلك لانهم لا يملكون التقليد القديم القائل «بالمصبر الإلهي» على
 انهم يزعمون لانفسهم كل ما يتعلق بالالوهية مما يقع في حيز
 معرفتهم . وهكذا فالاناجيل التي هي كملكرات وخواطر موحية
 لعقيدة بيولوجية واجتماعية وثيقة الصلة جدا بالمدنية الحديثة ،
 وان انتهت بتاريخ لوهم مرضي ، فهي والحالة هذه ، مفهومة
 معقولة مشوقة للمفكر المعاصر . على انها غير مفهومة ولا معقولة
 تحت أي ضوء آخر تضيئها ، الا لدى اناس يفرض الوهم نفسه
 عليهم فرضا .

الفصل العاشر

النقد الاعلى

سيواصل علم نقد الكتابات الفائرة ، والابحاث التاريخية دون الشك ، البرهنة على ان الاناجيل هي كالعهد القديم قلما اوردت حكاية فريدة في بابها ، او شرحت مبدا فريدا في بابها . وان هذين السفرين كثيرا ما يقدمان لنا استطرادات ، واخلاطا من تقاليد وعقائد لا يجمعها جامع ، ولا تشدها رابطة قط . هذه الثغرات وان كانت من الناحية التقنية تسترعي اهتمام الباحثين وترضي او تسخط (حسب كل حالة) الناس الذين يدافعون او يهاجمون التحصينات الورقية ! لعصمة التوراة ، وتنزهها عن كل نقد ، فانها تكاد تكون بعيدة تماما عن الغاية التي ارمي اليها في هذه الصفحات . فقد ذكرت ان معظم المرجعيين والثقة يتفقون الآن على ان تاريخ ميلاد يسوع يمكن تثبيته في حدود السنة التي اعطيناها رقم ٧ ق.م حسب التقويم الميلادي . الا انهم لا يؤرخون

رسائلهم بناء على ذلك بالسنة ١٩٢٢ م (١) ولا اظنهم يتوقعون مني ان افعل ذلك . فما انا في سبيله الآن هو نقد بمفهوم الكانتية للشكل الثابت من الاعتقاد الذي بات جزءا فعليا من نسيج قرالي العقلي . ولاكون من اشد المعابشين والدلييين ازعاجا اذا عسدت الى الانحراف نحو انتقاد عقيدة اخرى او «لا عقيدة» قد ينخلل قرائي انهم مؤمنون بها لو كانوا من المؤرخين او الباحثين الواسعي الاطلاع في مخطوطات العهد القديم . وفي هذه القضية ، والشيء بالشيء يذكر - كان عليهم ان يبتذلوا آراءهم كثيرا والى درجة وجب ان يستحوذ الانجيل الذي تدارسوه في صغرهم ، على افكارهم ويملك مذاهبهم ، باستمراره الفائقة الحدود . ان فوضى الوقائع المجردة في «الموعظة على الجبل» و «صفات الاحسان» (١) اللذين لا يوحيان ولا يثيران الا خلافا حول ما اذا كانتا اضافتين الى الاصل ام هما جزء من الاصل ؟ وفي ان يفدو يسوع فهو مجرد اسم يشك في انه يعود الى عشرة انبياء مختلفين او اشخاص تم تنفيذ حكم الموت بهم . وفي ان يكون بولس الرجل الوحيد الذي تستبعد كتابته سفر (اعمال الرسل) المعزو اليه ، وفي ان يحثى على رؤوسنا ما كتبه حكماء الصين وفلاسفة اليونان ومؤلفو اللاتين وكتاب النقوش الكتابية القديمة المجهولة المصدر ، بوصفها مصادر هذا السقط من التوراة او ذلك وكل هذا ليس بالدين في شيء ، ولا هو بنقد للدين كذلك . ان المرء لا يمكن ان يتأكد - بمثابة حقيقة واحدة - ان جزءا كبيرا من بناء

-
- ١ - لا كان شو قد كتب افكاره هذه في ١٩١٥ ، فهو يضيف اليها السنوات السبع التي افترضها ناقصة عن التاريخ الميلادي .
 - ٢ - الموعظة على الجبل في متى (فصل ٥-٧) وفي لوقا (فصل ٦) . اما عن صلاة الصدقة فهي في الفصل ٦ من متى .

كالدرائية بيتر بورو سيء العمارة ، وان المواد التي استخدمت في بنائه غير جيدة ، كما يستطيع مثلا انتقاد مواعظ الاسقف . اننا جعلنا من الاثر الادبي الذي نسميه التوراة ضدا منافسا ، أخيرا كان عملنا أم شرا . ومع ان اكتشافك الكثير من البناء الزائف الواهي في جسم التوراة هو عمل شيق بحد ذاته (لان كل ما يدور حول التوراة هو شيق) فان ذلك لا يغير «ضد النقيض» (١) نقيضا ماديا كبيرا حتى عند علماء المخطوطات القديمة ، كما لا يغيرها ابدا في نظر أولئك الذين لا يعرفون عن علم المخطوطات القديمة اكثر مما يعرفه رئيس الاساقفة اوشر (٢) ولذلك تجدني قد اشرت الى قدر من المستكشفات يزيد قليلا عما قد يستطيع رئيس الاساقفة اوشر التوصل اليه لو قرا التوراة دون تحيز .

والباقي تناولت ذلك «النقيض» كما يعيش ويعمل في الناس فعلا . ومهما يكن فالنقيض هو ما تريده انت : انسه القضية التي يترتب عليك ان تحكم عقلك فيها . وقد وصلت الى موضوع يسهل عليك ادراكه . وحتى لو كان احترامك للسير المصطنعة اكثر قليلا من احترامك للمطاط الاصطناعي والحليب الاصطناعي مما سيجعلنا نصنع مختلف انواع البشر كما يصنع الحلواني مختلف انواع الكعك ، فان الموضوع الحيوي العملي ما زال مطروحا امامك بالوضوح الذي طرح امام معظم المباد السذج وهو ما يصفه كبار الاحبار «بالنقد العالي» .

١ - وهو ما يدعى بالديالكسيك Synthesis .

٢ - James Ussher (١٥٨١ - ١٦٥٦) وليس اساقفة ارمناغ في ايرلندا . واضع نظرية مؤداها ان تاريخ الخليقة يبدأ في العام ٤٠٠٤ ق.م. هذا التاريخ قبله عدد كبير من المسيحيين بعد موته . الا ان الابحاث الجيولوجية ما لبثت ان دحضت مزاعمه واثبتت ان بدء الحياة على الارض يعود الى اكثر من مليوني سنة .

مخاطر عقيدة الخلاص

ان النظرة العلمانية في يسوع تتمركز تعريزا قويا في ايماننا هذه بزيادة عدد الاشخاص الذين يملكون وسائل لتدريب انفسهم وتعليمها الى الحد الذي لا يعودون معه يخشون النظر الى الوقائع دون وجل حتى تلك الوقائع المخيفة كالخطيئة والموت . والنتيجة هي زيادة القسوة والصرامة في الفكر الحديث . لقد اخذ ينتشر كثيرا الاعتقاد بأن باستطاعته ان يجعل ذنوبه اشد بياضا من الثلج بالغ ما بلغت من الاحمرار بممارسته رياضة بسيطة : هي رياضة الاعتزاز بالنفس . هذا الاعتقاد يتضمن تشجيعه على ان يصير ندلا وغدا . والنتيجة لا تكون سيئة جدا ان استطعت ايضا التاكيد له وجدانيا بأنه لو ترك نفسه تؤخذ على حين غرة بالموت قبل ايمانه ، فان جهنما حمراء سسشويه شيئا ، وهو حي الى ابد الأبددين ! في تلك الايام الخالية كان موت الغفلة وهو خير ما نحسد عليه المرء من المينات ، يعتبر من افظع الرزايا التي تحل بالانسان . هذه الميتة كانت توضع في صلواتنا بين قائمة الكوارث كالطاعون والوباء والمجاعة والحرب ، والقتول . الا ان الاعتقاد بمثل (جهنم) هذه اخذ يتلاشى بسرعة ، وقد تخلص منه كل قادة الفكر ووصل ذلك الى العامة وتفشى فيهم وهرب هذا النوع من الايمان الى تلك الاجزاء التي ما زالت تعيش في جو القرن السابع عشر ، من ايرلندا واسكوتلندا . حتى هناك ، فان المفهوم الضمني لهذا الاعتقاد هو انه من شؤون شخص آخر لا من شؤونك انت !

اهمية جهنم في مبدأ الخلاص

ان جدية التخلي عن فكرة جهنم والتشبيث في الوقت نفسه بالفداء ، هي مما لا سبيل الى نكرانه . ان لم يكن ثم عقاب على

لائم فليس في الامكان ان تكون هناك جهنم وبالتالي ليس ثم اية فرصة في معاناة المشاق والمصائب بنسيان الواجب ، اذ بإمكاننا والحالة هذه ان نكون اشرارا بقدر ما نرغب مع حصانتنا حتى من تأنيب الضمير ولوم النفس الذي يصبح مجرد انكار لطيف لسنة (الفادي) . وهي الحصانة التي يضمنها لنا القانون الوضعي . ومن جهة اخرى : لو لم يدفع المسيح عنا الحساب فان هذا الحساب سيظل في ذمنا وفي اعناقنا . ومثل هذه الديون تجعلنا غير مباحين الى اقصى حد . ان الاندفاع الى «الارتقاء او التحول» الذي نسميه بالضمير والشرف يتوازن على هذه المزالق فيصيبنا بأعظم الخجل لاننا انحططنا الى مثل هذا الدرك بحيث اجبرنا على اتيانها . ان اللص الذي «نال الخلاص» (١) ، خالجه فرح غامر لا يمكن ان يخالجه الملحد المستقيم السيرة ، مما يفريه بمعاودة السرقة ليتكرر عنده هذا الشعور الرائع بالفرح . لكن لو سرق الملحد قلن يتكون لديه مثل هذه السعادة : انه لص وهو يعلم بأنه لص وليس ثم ما يمكن ان يزيل تلك الصفة عنه ، وقد يحاول ان يخفف من شعوره بالعار بنوع من التعويض المادي او بممارسة عمل من اعمال الخير يقابله ، الا ان ذلك لا يفبر من الحقيقة وهي انه قام بارتكاب جريمة السرقة ولن يرنح له ضمير حتى يتقلب على ارادته في السرقة وينقلب انسانا مستقيما بتطویر الشراره الالهية في داخله ، تلك الشرارة التي اصر يسوع على انها حقيقة مستمرة يومية وهذا ما يرفضه الملحد .

ومع ان حال المؤمنين بوجود عقيدة العداة قد تكون افضل ، الا انها بالتأكيد ليست بالمرغوبة من وجهة نظر المجتمع . ان مسألة

١ - يقصد (لص اليمين) الذي آمن وهو مصلوب مع يسوع فقال له يسوع :
«اليوم ستكون معي في الفردوس» .

كون المؤمن أكثر سعادة من الشاك ليست اصدق من حقيقة كون
السكران أكثر سعادة من الصاحي . وسعادة الايمان الساذج هي
من الفضائل الرخيصة والخطرة ، وهي ليست ضرورة من ضرورات
الحياة مطلقا . ان موضوع نيل سقراط سعادة من الحياة بقدر ما
ناله ويزلي إنما هو موضوع مشكوك فيه . الا ان وطننا كل اهله
يشبهون سقراط قد يكون أكثر امنا واسعد حالا من وطن كسل
سكانه يشبهون ويزلي . وسيكون افراده اعلى درجة في سلم
الارتقاء . وفي جميع الاحوال فان آمالنا الآن تركز في الرجل
السقراطي وليس في الرجل الويزلي .

الحق في رفض الفداء

وبناء على هذا ينبغي لنا ان نقطع ما بيننا وبين الايمان بالفداء
وان كان ممكنا عقليا بالنسبة اليها جميعا ، وان حقنا في هذا
واضح . فلكل من يعرض عليه «الخلاص» حق طبيعي ثابت غير
مجزأ في القول : «كلا وشكرا» ، اني افضل الاحتفاظ بمسؤوليتي
الادبية كاملة ! وليس بالذي يصلح لي ان اكون قادرا على ان
احمل كل آثامي ظهور كباش فداء . اذ سأكون اقل حذرا في
ارتكاب تلك الآثام عندما اعلم انها لن تكلفني شيئا» . ثم هناك
موقف إيسن أيضا ذلك الاخلاقي الذي قدّم من الحديد . ففي
رايه ان مبدأ الخلاص بأسره ، ان هو الا محاولة جنسية لخداع
الله . اعني دخول الجنة مجانا دون دفع الثمن . ان يصفح
منك . . . ان تسترحم فتفوز بالحياة الابدية كهدية ، بدلا من ان
تكدح وتعمل في سبيلها ، لهر امر بدرجة كبيرة من الوضاعة ،
حتى عند قبولنا سخريّة تلك القوى التي نقايض نحن برحمتها
علينا . اما المساومة على تاج من المجد فوق كل هذا ! فهو مما لا
يستطيع إيسن احتماله ، ويستفزه الامر فيصرخ قائلا : «ان الهك

رجل شيخ وانت تقوم بفشه» ثم يهوي ضربا بسوط مجدول من العقارب (١) على ضمير القرن التاسع عشر الميت ليعيده الى الحياة .

تعاليم المسيحية

وهنا ينبغي لي ان اترك الامر الى الاختيار الذي يهفو اليه طبعك . ان المعلم المستقيم الذي يترتب عليه ان يعرف التلميذ المستجد بالحقائق عن المسيحية لا يستطيع حسب ظني ان يضع الوقائع بشكل يختلف عن الشكل الذي وضعتها به فوق اي اعتبار جوهري . واذا كان واجبا عليه انقاذ الاطفال من الملحد المهتدي من جهة ، ومن الراهبة المهتدية في مدرسة الدير من الجهة الاخرى فضلا عن جميع الوعاظ المستقرين فيما بين هذين الحدين، فمن الواجب ان لا يثقلوهم بالمتناقضات غير المجدية من امثال التساؤل : اوجد شخص باسم يسوع ام لم يوجد ؟ عندما قال هيسوم بأن حروب ايشوع غير ممكنة فان (ويتلي) لسم يجادل في ذلك وبرهن بعين الطرق التي اتبعها هيوم بأن حروب نابوليون هي الاخرى غير ممكنة ! ان الشخصيات الخيالية وحدها هي التي يمكن ان تصمد امام الاختبارات الشبيهة باختبارات هيوم وليس ثم ما يمكن ان يجعل (ادوارد المعترف) و(القديس لويس) شخصين حقيقيين لدينا كما كانت شخصيتا دون كيشوت ؟ ومستر بيكويك . علينا ان نضع حدا للملاحاة والمناقشة

١ - سفر الملوك الاول الفصل ١٢ : «أبي عاقبكم بالسوط ، وأنا اعاقبكم بالعقارب » .

٢ - انظر سفر الخروج وسفر يشوع في التوراة .

بالتصريح بوجود شواهد على وجود يسوع فدر ما يوجد على أي شخص كان معاصرا له . اما وانك قد لا تصدق بكل ما يحدثك متشئ ، فهذا لا يدحض وجود المسيح اكثر من دحض حقيقة انك لا تؤمن بأن كل ما يحدثك ماكولي انما ينفي وجود وليم الثالث . وحكايات الانجيل بالاساس ، تقدم لك سيرة حياة قابلة للتصديق وممكنة التعليل على أسس علمانية صرفة . بعد تقليم كل ما رفضه الاخوان هكسلي او هيوم او غريم او روسو واعتبروه خياليا . وقبل ان نعطي في دربتنا اكثر مما مضينا اقول : بإمكانك ان تغدو تابعا ليسوع مثلما يكون في وسعك ان تغدو تابعا لكونفوشيوس ولك والحالة هذه ، ان تدعو نفسك باليسوعي او حتى بالمسيحي ان كنت مؤمنا (وهذا من حق أي علماني متمسك بعلمانيته) بأن كل الانبياء ملهمون من الإله ، وان كل ذي رسالة من البشر هو مسيح .

وعلى المعلم المسيحي بعد هذا ان يعرف الطفل بنسب (جون بارلي كورن) وبالحقول وفصول السنة بوصفها شواهد على حقيقته الخالدة ، ثم وبمراحل تكامل نضوج عقل الطفل (1) . يستطيع تعلم مبادئ (الفداء والهداية والخلاص والقيامة ، والمجيء الثاني) كظواهر تاريخية وسايكولوجية وكيف ان يسوع في دنيا مشبعة بهذه المبادئ - قد قبل في معظمتها بوصفه المسيح المنتظر منذ زمن طويل . ويسمح للطفل ايضا ان يقبل بـ «الفادي» الذي كثيرا ما تنبأ الانبياء بمقدمه . اما اذا كان كيانه قد بني مثل كيان غلادستون فانه سيقبل يسوع كمخلص له ، وسيقبل ببطرس وبيوحنا العمدان اولهما بوصفه كاشفا

١ - كلمة الطفل Child التي يستخدمها بشو هنا لا تعني «الطفل» حرفيا وانما تعني ابناء البشر الصالحين او الطالحين الذين يعتبرون «أطفالا» للمسيح.

لحقيقة المسيح وثانيهما بوصفه ممهدا سبيله . اما اذا كان بناء الطفل مثل بناء هكسلي فسيعتقد النظرية العلمانية رغم انفس الاسرة الورعة التقية ، وبصرف النظر من كل ما تفعله للحيلولة دون ذلك . والامر المهم الآن ، هو ان لا يبدد الغلادستونسيون والهكسليون اوقانهم بعد الآن في المجادلة السخيفة حول حنازير الجدرين وان عليهم ان يفرروا بخصوص صحة المبادئ العلمانية التي جاء بها يسوع ، فهم حول هذه المبادئ يتصارمون فسي عصرنا هذا .

المسيحية والامبراطورية

ونتساءل اخيرا ، ما الذي حدث للخرافات القديمة حتى فقدت ماء وجهها بمثل هذا التكل المفاجيء بحث ان القواسم التي بها يتمكن المضطهدين ان يدمروا ويكسوا انفس حرية الفكر والقول في هذه المجالات (وهو مصدر اعظم الخزي والعار لماده الوطن وزعمائه) ظلت كما هي غير معدلة ، مهياة للاستعمال . مشرعة كالسيف بأيدي غاصبين ومتزمتين (قبل مدة قصيرة جدا حكم على صاحب حانوت محترم بجريمه الكفر والتجديف لانه قال : «اذا بررت فتاة العصر حملها سفاحا بفولها انها حبلت بروح القدس ، فعلينا ان نعرف ماذا نسننتج !» وهي ملاحظة ما كانت لتخطر بباله لو علم كيف اقحمت الحكاية كلها على الانجيل اقحاما . ومع هذا فهي تستخدم بشكل ما صد الفراء . انها لتستخدم بشكل يفتقر الى الحماسة ، وعندما نتأمل بأن ثمانية قرون مضت وانقضب منذ ان تجرأ اول الباحثين على الهمس بسر مهنة له وهو ان اسفار التوراة الخمسة الاولى لا يمكن ان يكون كاتبها موسى حتى قال اسقف كولينزو (١) ان لم تخني الذاكرة - الشيء نفسه

١ - احد الكتاب الدينيين . هوجم لنقد اجراء من التوراة . وعزل ثم اعيد الى منصبه .

علانية فمنع من الوعظ ثم حرّمته الكنيسة . ان النقطة التي يدور حولها البحث وان كانت تقنياً هامة بالنسبة لعلماء المخطوطات القديمة والمؤرخين الا ان تأثيرها على سعادة البشرية لا يزيد عن الخلاف حول : هل ان الكتابة «الإنشائية» أقدم شكل للخط ام هي الكتابة «الكوسية» (٢) ومع مرور هذه المدة بل وبعد خمسين سنة على زندقة اسقف كولينزو لم يعد هناك رجل دين او اي مرجع من الاحياء او اي مدني مشفق يستطيع التصريح دون ان يتعرض للسخرية - بان موسى كتب الاسفار الخمسة مثلما كتب باسكال افكاره ودوبنيه تاريخه عن الاصلاح الديني . او كتابة القديس جيروم الفقرة الخاصة بالشهود الثلاثة فسي الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس او ان هناك لا اقل من ثلاث روايات مختلفة عن الحليقة خبّطت بعضها ببعض عشواء في سفر التكوين . واليوم فان اشدّ التقدميين جنوناً لا يسمعون ان يجادل في تقدمنا بسبل الحكمة والتحرر اللذين بلغا في نصف القرن المنصرم اعظم مما بلغاه من مراق في غضون ستة عشر بضعا من القرون التي سلفته : صحيح انه قد يكون من الاسهل تأييد الافتراض بأن السنوات الخمسين الاخيرة شهدت رد فعل ملحوظ من التحرر الفكتوري الى الجماعية الاشتراكية التي مكنت مذاهب الدولة (٢) وقوتها بشكل واع ، ومع هذا فقد بقيت

-
- ١ - Cursire , Uncial هما نوعان من الخطوط الكتابية استخدمتا في تدبير الكتب القديمة . اولهما شبيه بالاحرف الحديثة الكبيرة «كابييتال» اما الثاني فهو الخط السريع المائل المتصلة احرفه وهو اقرب الى خط اليد الحديث.
 - ٢ - يقصد شو بمذاهب الدولة هنا ، المذاهب التي تعترف بها السلطة المدنية رسمياً وتتفق معها مبادئ واجتماعاً وسياسة فتتعاون معها .

الحقيقة قائمة وهي ، بما ان «قاين» بايرون (١) المطبوع قبل قرن مضى كان التجربة الرائدة في نقطة عدم وجود حقوق طبع في كتاب تجديفي فان جمعية جيش الخلاص قد تدخله اليوم في عداد مطبوعاتها دون ان تصيب احدا بصدمة .

واني اميل للقول بان الاسباب التي وطأت لمثل هذه التنقية الفجائية للجو تتضمن تغير كثير من الدول الحديثة . واخص منها بالذكر ، الجمهورية الفرنسية المكتفية بذاتها وجزيرة بريطانيا الضيقة الرقعة الصغيرة وتحويلها الى امبراطوريات تفرح حدود كل البيع . في الهند مثلا يوجد أقل من اربعة ملايين مسيحي بين السكان الذين يبلغ تعدادهم ثلاثمائة وواحد وسعين مليوناً ونصف مليون وملك انكلترا هو حامي حمى الايمان ولكن اي ايمان هو المقصود الآن ؟ ان سكان هذه الجزيرة على حد ما يذكره الاشخاص الذين ما زالوا احياء ، قد ادعوا ان دينهم هو دين الله وان البقية كلهم زنادقة ولكننا نحن سكان الجزيرة لا يزيد عددنا عن خمسة واربعين مليوناً واذا اعتبرنا انفسنا مسيحيين جميعاً فما زال ثم سبعة وسبعين مليوناً من المسلمين في الامبراطورية . اضيف الى هؤلاء الهندوس والبوذيين والسيخ والجاين اولئك الذين لقنت في طفولتي عن طريق التعليم الديني - اعتبارهم من اعظم الوثنيين المشركين الذين قضى عليهم بالهلاك الابدي . الا اني قد اتعرض للعقاب اليوم لو اني حططت من قدر دياناتهم بكلمة فيها استغزاز ، ولديك ما يزيد مجموعه العام عن ثلاثمائة واثنين واربعين مليوناً وربع مليون ، منهم والشيء بالشيء يذكر سنة آلاف فحسب يطلقون على انفسهم بصورة دؤوبة اسم تلاميذ

١ - مأساة شعريه كتبها الشاعر الانكليزي لورد بايرون وهي تحكي قصة مقل هابيل على يد قاين .

المسيح والباقيون هم اتباع كنيسة انكلترا وطوائف أخرى تلمذتهم للمسيح أقل من أولئك ظهورا وثباتا . ومجمل القول ان انكليزي اليوم بدلا من ان يكون عملا مواطنا دولة مسيحية بكليتها مثلما كان أسلافه الذين يتمسك حاليا بأرائهم ، تجده في الواقع منحصرًا جدا في زاوية من الامبراطورية حيث يؤلف المسيحيون فيها أحد عشر بالمائة من مجموع السكان لا أكثر . وهكذا فإن «المنشق» (١) الذي يفضل ان يباع مسند مظلاته بالمراد العلني على ان يدفع ضرائب لمساعدة كنيسة انكلترا يجد نفسه وهو يدفع ضرائب لا لغاية الكنيسة الرومانية في مالطة فحسب بل لاجل ارسال المسيحيين الى السجن محكومين بجريمة الكفر المتضمنة عرض التوراة للبيع في شوارع مدينة الخرطوم .

وتعال الى فرنسا وهي بلاد أكثر انعزالا في انشغالها بلفتها وتاريخها وهوينها الشخصية بعشر مرات منا نحن الذين استكشفنا واستعمرنا وتدمرنا وثرنا . هذا الشعب الذي كان يوما ما مستقلا بنفسه ، يعد الآن اربعين مليونا . على ان مجموع مواطني الجمهورية الفرنسية هو حوالي مائة واربعين مليون . والفرنسيون ليسوا كأقليتنا المسيحية التافهة التي لا تعدى ١١ بالمائة وانما هم الاقلية الكبيرة البالغة ٣٥ بالمائة ذات الكلمة

١ - المنشقون او اللامؤيدون : Nonconformists تلك الكنائس التي انشقت عن الكنيسة الانجليكانية الرسمية في انكلترا (القرن السابع عشر) . هؤلاء المنشقون كانوا حتى اوائل هذا القرن يعارضون قانون التعليم الذي تدير عليه الدولة . لأنه أوجب دفع شيء من الدخل الفردي بمثابة اعانات للمدارس الانجليكانية وكان هؤلاء يرفضون طبعاً دفع الضرائب لتمويلها . ولذلك كانت مقتنياتهم تتعرض للحجز والبيع تسديدا للضرائب المذكورة ، كما كانوا يرجون في الحبس بسببها !

الحاسمة الى حد ما . وبما انهم شعب منطقي اكثر منا فقد تخلوا رسميا عن المسيحية واعلنوا ان الدولة الفرنسية لا دين لها متعین . والدولة البريطانية مثلها هي الاخرى ، الا انها لا تفر بذلك . وليس من شك في ان هنالك اناسا ابرياء كثيرين فيها يتأثرون وجهة نظر شارلمان وهم يعرضون المسيحية على التسعة والثمانين بالمائة من وثنينا كبديل عن الموت (ويؤسفني قول هذا) لسولا الانطباع الغامض عندهم وهو ان هؤلاء الضالين سيهتدون السى الدين المسيحي شيئا فشيئا بمجهودات جمعيات التبشير . على انه ليس ثم سياسي او رجل دولة يؤمن بهذه الاوهام الابرشية السخيفة . وليس بمقدور ملك انكليزي او رئيس جمهورية فرنسي ان يمارس الحكم زاعما ان لاهوت (بطرس وبولس) او (لوثر وكالفن) له صحة موضوعية او ان المسيح اكبر من (بوذا) او ان يهوه اعظم من كريشنا او ان يسوع انساني اكثر او اقل ممن محمد او زرادشت او من كونفوشيوس . انه مضطر عملا - ما دام يقوم بسن القوانين ضد الكفر عموما ، الى معاملة كل الاديان ويضمنها الدين المسيحي معاملة الزيف والهرطقة عندما تعرض امام الناس الذين لم يتعودوها او يقبلوها بها وهذا ايضا امتياز لتعصب ضار يجب على الامبراطورية لاستئصاله ان تستخدم سلطتها في مراقبة التعليم .

من جهة اخرى ، ليس بمقدور الحكومة في الواقع ان تشجود من جلباب الدين او حتى ان تتبرا من عقيدة ما . وعندما قال يسوع ان الانسان يجب الا يكتفي بالعيش فحسب بل ان يعيش حياة اكثر فزارة وانتاجا ، فقد كان يستن مبدأ . وهناك كثير من الحكماء المتشائمين امثال شكسبير الذين توسل احد ابطلال مسرحياته بصديق له راجيا منه ان يعمل جهده ليثنيه عن الانتحار فنصحه بقوله « ابعد نفسك عن السعادة ردحا من الزمن » قد يؤكدون رأيهم العظيم الضرر (والواقع ان كثيرا من الوعاظ

والقديسين يصرحون وبعضهم باسم يسوع نفسه) أن هذا العالم هو وادي الدموع . ومن الأفضل لنا أن نصرف عمونا في الحزن بل حتى في العذاب استعدادا لحياة مقبلة أفضل من حياتنا هذه . إلا أرح هؤلاء الحزاني ، وسيسلمونك الى الحيرة والدهشة حين تجدهم يرتدون قمصانا من الشعر الخشن .

مع ذلك فعلى الحكومات أن تعمل وفق افتراضات مبدئية ، وسواء في ذلك أسموها مبادئ أم لم يسموها فمن الواضح أنه يجب أن تكون قواعد مقبولة من النقوس بحيث تصم مسن يرفضها بالشذوذ والجنون . وكلما أشتد تنوع السكان واختلافهم في الخواص كلما وجب أن تكون تلك المبادئ ادعى الى القبول . فمن الممكن أن يدار دير الرهبان السكوتيين (١) بمبدأ من المبادئ قد يثير في ظرف أربع وعشرين ساعة هياج أهل القرية المجاورة فتدنو الفتنة حتى تطرق ابوابه ذلك لأن الدير هو الذي يختار نزلاءه وأن لم يرغب الراهب السكوتي فله أن يتركه . لكن مواطن الامبراطورية البريطانية أو الجمهورية الفرنسية لا يخضع لعملية اختيار ما . فالانتقال والهجرة غير عملية الا في حدود ضيقة وهي قلما تكون علاجا ناجعا وكل المواطنين اليوم متشابهون الى ابعاد حد . وواضح بدون شك لكل من كان قادرا على فهم معنى الحكومة بشكل من الاشكال ، أن مجموعة المبادئ الرئيسة التي صيغت بالمواد التسع والثلاثين (٢) أو في الاقرار الويستمنستري (٣)

١ - رهبنة كاثوليكية تدر أعضاؤها الصمت الدائم طول العمر .

٢ - جملة قواعد ومبادئ تحكم اكليروس الكنيسة الانجليكانية وهي مطبوعة عادة في كتاب الصلوات الانكليزي .

٣ - وثيقة كتبها في ١٦٤٣ جمعية الاحبار التي التأت في وستمنستر بناء على دعوة البرلمان لايجاد تسوية للخلافات الدينية التي كانت تفتاح البلاد . ومع

هي بدون جدال غير صالحة مطلقا لتكون قواعد سياسية
للامبراطوريات الحديثة . ان الايمان الشخصي بها من قبل اي
فرد يميل الى اخذ مسألة الايمان مأخذ جد انما يعجده شخصيا
من اهلية تسنم منصب امبراطوري رفيع . ان (نائب ملك) في
الهند (كالفني) النزعة مثلا ، او وزيرا للخارجية يعتنق المذهب
المعمداني المستقل، كفيلان بأن يطوحا بالامبراطورية في المهالك . وآل
ستيوارت بمنطقةهم الاسكتلندي ومبدئهم اللاهوتي حملوا هذه
الجزيرة الصغيرة التي كانت نواة الامبراطورية . وما يمكن ان
يؤيده المرء بشكل معقول هو ان براعة الانكليز المزعومة في الحكم
الذاتي الذي يناقض كل مرحلة من مراحل تاريخهم ، ما هو في
الحقيقة الا عدم براعة لا امل في شفائه . عدم براعة وتخطيط في
الالهيات ، والفكر المنظم واي جهة من الجهات الاخرى مما يجعلهم
كذلك قليلي الصبر على الحكم المنظم او الصالح المنتظم ، ما دام
تاريخهم تاريخ شعب اسيء حكمه وشاءت الصدفة المحض ان
عاش في حرية بدرجة «نسبية» ! وهكذا فنجاحنا في استعمار
البلاد عندما تم من دون اللجوء الى اباداة سكان المستعمرات كان
بسبب عدم اهتمامنا بخلاص انفس رعايانا ، ويستثنى من ذلك
ايرلندا (وهي الدليل الشاخص على عجز الانكليز عن الاستعمار الا
بإباداة المواطنين) وهي ايضا البلاد الوحيدة الخاضعة للحكم
البريطاني حيث ينطلق المستعمرون الفاتحون من افتراضهم ان
مهمتهم انما كانت تثبيت اصول البروتستانتية فضلا عن جموع
المال ، ومن ثم ضمان حياة السكان البائسين الذين يجمع ذلك
المال من كدهم وعملهم على الاقل . في هذه اللحظة ترفض اولستر

ان الفرض منها هو ان تكون بدلا للمبادئ التسع والثلاثين الا انها اصحت
قانونا لكنيسة اسكتلندا البريتانية .

قبول المواطنه مع الاقاليم الايرلندية الاخرى لان الجيوب يؤمن
بالقدس بطرس وبوسويه (١) والشمال يؤمن بالقدس بولس
وكالفن . الا فلنتصور تأثير محاولة حكم الهند او مصر من مركز
بلغاست (٢) او الفاتيكان .

ولعل الوضع بالنسبة الى فرنسا اخطر من الوضع بالنسبة
الى انكلترا ، لان الخمسة والسبعين بالمائة من رعايا الفرنسيين
الذين ليسوا هم بالفرنسيين ولا بالمسيحيين ولا بالتجديدين .
يضمون حوالي ثلاثين مليوناً من الزوج الذين يمتازون بالحساسية
والحساسية السديدة ضد الاهتداء الى تلك الاشكال الخلاصية من
المسيحية الزائفة التي نجم عنها كل الاضطهادات والحروب الدينية
خلال القرون الخمسة عشر الماضية . عندما حدثي المستكشف
الرائد المرحوم هنري سائلي عن القبضة المحكمة العاطفية التي
تمارسها الديانة المسيحية على قبائل الباغاندا وقرأ لسي
رسائلهم التي كانت تشبه تماماً رسائل القرون الوسطى بايمانها
الخرافي الحرفي وورعها البادي ، سألته : «بمقدور هؤلاء ان
يستعملوا بندقة ؟» فأجابني ستائلي بشيء غير قليل من التهكم :
«طبعاً انهم لفادرون كأي رجل ابيض !» والآن في هذه الساعة من
العام ١٩١٥ نتأجج نيران حرب اوروبية واسعة النطاق ، وفيها
يستخدم الفرنسيون جنوداً سنغاليين ، يطيب لي ان أوجه سؤالاً
الى الحكومة الفرنسية التي تشبه حكومتنا بتركها عمداً التعليم
الديني لهؤلاء الزوج في ايدي مبشرين من الكاثوليك البطرسيين
والكالفنيين البولسيين وهذا السؤال هو : هل تفكر في الشروع
بسلسلة جديدة من الحروب الصليبية جنودها خلاصيون افارقة

١ - (١٦٢٧ - ١٧٠٤) لاهوتي فرنسي وواعظ ساحر اللسان .

٢ - عاصمة ايرلندا الشمالية .

متحمسون لاجل انتقاد باريس من قبضة الكفار العصريين العلميين تحت شعار : «الا فلنعد الى الرسل ! الا فلنعد الى شارلمان !» .

اننا لاسعد منهم حظا لان الاغلبية الساحقة من رعايانا هم هندوس ومسلمون وبوذيون ، اعني ذوي ديانات عصرية خاصة رقيقة تقوم بمثابة عامل وقائي من المسيحية الخلاصية . ان الديانة المحمدية التي عدّها نابوليون في اواخر حكمه بأنها على اقرب احتمال خير دين شعبي يصلح للتطبيق السياسي الحديث ، كانت ستبرز كمسيحية مستصلحة لو ان محمدا بشر برسالته بين مسيحيين من اهل القرن السابع عشر بدلا من العرب الذين عبدوا الحجر . وكما انت واجد ، الناس اليوم لا ينبذون محمدا لاجل الانضواء الى كالفن . وانك اذ تقدم للهندوسي لاهوتا كلاهوتا بمثل هسده السذاجة بدلا من لاهوته ، او تقدم له ادبيات الشرائع اليهودية بوصفها نسخة محسنة للادبيات الهندوسية ، كنت كمثل من يقدم مصابيح قديمة عوضا عن مصابيح اقدم في سوق تكون اقدم المصابيح اعلى قيمة من سواها ، كالاثاث القديم في انكلترا .

مع هذا فلاكرر انه يتعذر وجود حكومة بدون دين ، اي بدون مجموعة من مبادئ شعبية مقبولة عموما . فالعقل المتفتح لا يعمل قط : ونحن عندما نحاول جهدا الوصول الى تشيئة معقولة ، ما زلنا نجد انفسنا مضطرين الى ان نطبق عقولنا اطباقا محكمة هنية من الوقت لتتبع استنتاجاتنا بشكل لا مرد له عندما نعجز عن الاستقصاء او التحكم العقلي . ان الانسان الذي يزجي الوقت الطويل في تنظيم وصية له معقولة تماما يموت من دون وصية . والتصف الذي بلغ انصافه حدا لا يجد معه حرجا في السرقة والقتل او في الحاجة الى الطعام او التناسل وبما كان الاجدر به ان يصير وغدا احمق من ان يفدو مشترعا او رجل دولة . ورجل السياسة العصري مزيف الديمقراطية الذي يزعم انه لم يأت الى الحكم الا لينفذ ارادة الشعب فتكون حركاته اشبه

بقفزات الهره . هو ولا غرو لص مثقف ولص سياسي . وحكم الرجل السلبى اللاعقيدى يعنى في الواقع العملي حكم الرعاسع بتنه وفصه . وحرية الضمير حسب التعبير الذي استنبطه كرمويل هو شيء ممتاز ومع هذا فلو اقترح احدهم تطبيق قاعدة حرية الضمير بخصوص اكل لحوم البشر في انكلترا ؛ لكان كرمويل سيطرحه ارضا ويهوي عليه ضربا بالفلقة بالفورية والاصالة التي يستخدمها مع اي كاثوليكي تابع لروما . وان كان في فيجي سبساند من كل قلبه حرية الضمير النباتي التي تستخف بالطعام المقدس المسنى «لونغ بيغ» (1) .

هاهنا اذن تأتي اهمية انكار يسوع عمل الهداية . وقاعدته هي هذه : «لا تقلع الحسكة . وابذر القمح . ولو حاولت قلع الحسكة لقلعت السنبلة معها» . وتلك هي القاعدة الممكنة الوحيدة لرجل الدولة الذي يحكم امبراطورية عصرية ، او لناخب ينسند مثل هذا السياسي . ليس هناك في تعاليم يسوع ما لا يمكن ان يوافق عليه برهماني او مسلم او بوذي او يهودي دون حاجة الى اهندائهم للمسيحية ، او سؤالك اياهم ذلك . ومن بعض النواحي يكون الجمع بين المسلم وبين يسوع اسهل عليك من الجمع بين بريطاني ويسوع لان فكرة الكاهن المحترف هي فكرة غير مألوفة . ان يسوع لم يقترح على تلاميذه تفضيل انفسهم عن جمهور المؤمنين . فقد التقطهم من قارة الطريق حيث لكل امرأة او رجل ان يتبعه . وانك لا تجد لديه كلمة طيبة مهذبة للكهنة ولذا اظهروا روح عدائهم له بالسعي لقتله بأسرع ما امكنهم . كان بموجب القول خصما للكهنة على طول الخط . ومع اننا لا نستطيع — كما رأينا — ان نضع مبادئه موضع تطبيق الا بالوسائل السياسية فانه لم يبق

جامدا عند حدود شجبه اقامة الشيوقراطية الطائفية كشكل من اشكال الحكومة . وكان سيتنبأ بدون شك بسقوط المرحوم الرئيس كروغر لو وجد في زمانه (١) بل لرفض ان يتسير على تلاميذه عندما جوبه بالتحدي - بان بمتنعوا عن اعطاء ضريضة قيصر (٢) ، مسلما بان لقيصر مكانته في تصريف الامور (ومفروض لقيصر بان له ملكوت السماء كأي تلميذ من تلاميذه حسب الحق يقال ان التلاميذ جعلوا من هذا عذرا لاطهار تبعيتهم وخضوعهم للدولة القائمة ، حتى انحدروا الى هاوية الشرك التي انتهت بنظرية (حق الملوك الالهية) فاثاروا الناس حتى دفعوهم دفعا الى قطع رقاب ملوكهم لاجل تحقيق بعض التعادل في الوضع الراهن . ولا شك ان يسوع لم يفكر في تحطيم الامبراطورية الرومانية واحلال منظمة كنيسة محل الكنيس اليهودي او محل نظام كهنوت الآلهة الرومانية كجزء من برنامجه . قال ان الله خير من (مأمون) ولكنه لم يقل ان التوام الواحد هو خير من التوام الآخر (٣) ولهذا كان يوسع المواطنين البريطانيين ورجال سياستهم اتباع تعاليم المسيح وان لم يكن في استطاعتهم اتباع هذا التوام ام ذاك والا سببوا في انحطام الامبراطورية وتكسرها على رؤوسهم . والى هذه المرحلة يجب ان اتوقف في الموضوع .

(١٩١٥)

١ - Paul Kruger (١٨٢٥ - ١٩٠٤) رئيس جمهورية الترانسفال، وزعيم حرب البور الشهيرة التي قادها ضد الانكليز في جنوب افريقيا (١٨٩٩ - ١٩٠٢) .

٢ - اشارة الى ما ورد في الانجيل .

٣ - هكذا اوردها شو وهي من مباحكاته اللغوية : Tweedledum, Tweedledee ويعني بهما التوامان في قصة الاطفال الشهيرة (اليس في المرأة)

هذا الكتاب

هذا الكتاب وهو من ضمن سلسلة نقد الفكر الديني التي تقوم دار الطليعة بنشرها - يتصدى إلى تحليل العقيدة المسيحية على ضوء المفاهيم الخلقية والسياسية الحديثة بأسلوب شو اللاذع الساخر الذي ينتزع الإبتسام من أشد الناس عبوساً . لأول وهلة يبدو شو متكبراً للشرعة التي قدمها المسيح للإنسانية ، لكنك تجده في الحقيقة يشرح الدور القذر الذي لعبته مصالح طبقات معينة لتشويه تلك العقيدة وإبعادها عن المفهوم الانساني الذي قصده « المسيح » نفسه

صدر في هذه السلسلة :

- ١ - نقد الفكر الديني : د. صادق جلال العظم - ٢ - نقد الفهم المصري للقرآن : د. عاطف احمد - ٣ - الثالوث المحرم : بو علي ياسين - ٤ - جدلية القرآن : د. خليل احمد خليل - ٥ - التوحيد في تطوره التاريخي : ثريا منقوش - ٦ - في الدين والتراث : هادي العلوي - ٧ - حول الدين انجلز - ٨ - الماركسيون والدين : ميشال فيريه - حول الدين : لينين - ٩ - صلة القرآن باليهودية ويلهلم رودولف - ١٠ - موسى والتوحيد : سيب

Bibliotheca Alexandrina



0389792

ل.ل.
ل.ل.

دار الطليعة للطباعة والنشر
ببيروت

To: www.al-mostafa.com